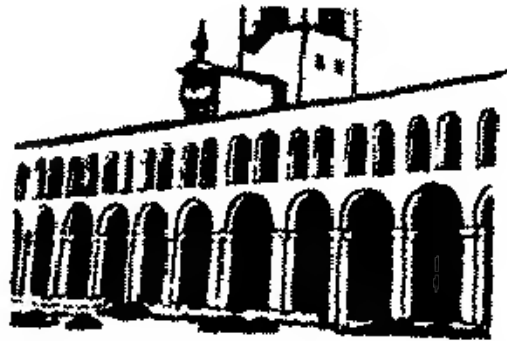


عشرون

في عصر الماليك

تأليف وترجمة
الدكتور نقيلا زبيادة

١



ترجمہ مؤلف الكتاب
اللاكتور نقولا زياده

دمشق
في عصر المالِك

شَرَّحَ بِالْإِسْتِزَاكِ مَعَ
مُؤَسَّسِيهِ فَرَنْكَلِينِ لِلطَّبِّاعَةِ وَالنَّشْرِ
بَبْرُوت - نِيُوثُوك

تأليف وترجمة
الدكتور نغولا زياده

دمشق
في عصر الماليك

مكتبة لبنان

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

This is an authorized translation
of DAMASCUS UNDER THE
MAMLUKS by Nicola A.
Ziadeh. Copyright 1964 by the
University of Oklahoma Press.
Published by the University of
Oklahoma Press, Norman, Oklahoma.

المسهمون في هذا الكتاب

الدكتور نقولا زبيكاه

(المؤلف) نال درجة الدكتوراه من جامعة لندن في عام ١٩٥٠ . وهو الآن استاذ التاريخ العربي الحديث ورئيس دائرة التاريخ والآثار في الجامعة الاميركية في بيروت . وله تسعة عشر مؤلفاً بالعربية وخمسة اخرى بالانجليزية ، الى جانب العديد من المقالات التي كتبها للمجلات العربية والانجليزية ، كما انه اسهم في دائرة المعارف البريطانية بثلاث مواد ودائرة المعارف الاميركية بمادتين .

تمهيد

عرفت دمشق ، في العهد المملوكي ، أحداثاً هامة ومرت
بتجارب كثيرة . والكتاب الذي تقدمه الى القارىء اليوم انما
هو عرض لذلك كله .

ومن حسن حظ الذين يتصدون للكتابة عن دمشق في ايام
الممالك ان ما كتب عنها كثير . فقد عني بها المؤرخون ، وزارها
رحالة كثر ، وقد دون عدد كبير منهم انطباعاتهم ومشاهداتهم ،
سواء في ذلك العرب والاوروبيون .

والكتاب الذي بين ايدينا وضع اصلاً بالانجليزية ونشرته
مطبعة جامعة اوكلاهوما (بالولايات المتحدة) في « سلسلة مراكز
الحضارة » . فلما ارتأت مؤسسة فرنكلين ان ينقل الى العربية
فضلنا ان نتوسع بعض الشيء في المختارات المنتقاة من المصادر
العربية — كابن كثير وابن تغوي بردي وابن جبير وابن بطوطة
وغيرهم — كي نضع بين ايدي القارىء العربي نماذج أوفى خاصة

وان الكثير منها فيه من جمال الاسلوب ودقة الوصف ورقة
العبارة ما يشرح الصدر ويملأ النفس حبوراً . وهذا هو الفرق
الوحيد بين الطبعة الانجليزية والطبعة العربية من هذا الكتاب .

الجامعة الاميركية في بيروت

ربيع ١٩٦٦

نقولا زياده

مقدمة

تضافر الموقع الجغرافي والتاريخ والاسطورة فجعلت من دمشق مدينة عظيمة ؛ ذلك انها تقع على طرف السهل ، ويقع الى شمالها وغربها جبل منيع يمحصها ، وتتصدر نحوها من الغرب المياه الاقية من الينابيع الغزيرة . ومن ثم فما اكثر ما طمع فيها الناس . وقد جذب هذا المكان الانسان اليه لانه يسر له ارضاً للاستثمار ، وماء غزيراً للري والاغتسال وجبلاً يحميه اذا دهمه الخطر . ونمت المجتمعات وتوطدت العلاقات بينها ، فأصبحت دمشق نقطة يلتقي عندها الجيران . فالشعوب التي كانت تقطن شمالي دمشق او شرقها او جنوبها وجدت نفسها ، منذ فجر التاريخ ، تسير على هذه الدروب المؤدية الى دمشق لتبيع منتوجها ولتبتاع حاجاتها . وقد تنوعت الحاجات وازدادت بتطور الحضارة وبسبب توسع الرقعة التي كانت دمشق تؤمنها ، ومع ذلك ظلت دمشق تزود الراغبين بما يريدون . فالغوطة كانت تنتج انواعاً مختلفة من الخضار والفواكه ، والمناطق التي

تبعده قليلاً كانت تفتح الحبوب، وكانت الجلود والعظام والقطن،
قيماً بعد، تصلها من أماكن قريبة نسبياً. ولما توسعت العلاقات
التجارية صارت بضائع الشرق والغرب ومتاجرها يتبادلها التجار
في أسواق دمشق.

كان ثمة طريق يصل دمشق بحلب ومن ثم بالعراق وآسية
الصغرى، وآخر يربطها بتدمر وبعدها ببغداد وبلاد الشرق
النائية، وثالث يتبعه المسافرون إلى درعا جنوباً ومنها يواصلون
سيرهم إلى الحجاز، ورابع كان يمر ببخيرة طبرية إلى فلسطين
ثم مصر، وأخيراً الطريق الذي كانت يصل دمشق ببيروت
وصيدا على الشاطئ اللبناني - متفديها إلى العالم الغربي.

إذا اقتربت دمشق من الشرق أو الشمال أو الجنوب، سواء
أكان سفرك على فرس أو بالقطار أو بالسيارة أو بالطائرة فأنك
تلاحظ، إذ تراها وترى غوطتها، الانتقال من الأرض الجافة
إلى الأرض المروية، ومن الصحراء إلى المزدرع، ومن أرض
البدو الرحل إلى بلاد المجتمعات المستقرة المطمئنة. وأنا أحس
بالسرور الذي تبعته دمشق في نفسي أكثر ما أحس، حين
اقصدها آتياً بالسيارة من الأردن أو تدمر، أو بالطائرة من
بغداد أو الكويت، وخاصة في فصل الجفاف. عبثاً تحاول
العين أن تتقرب بقعة من العشب أو شجرة أو شجيرة أو نبتة:

فاذا وصلت الى دمشق رأيت بساطاً سندسياً من البساتين ممتداً
أمامك .

تدعي دمشق انها اقدم مدينة في العالم . وقد تمكنت اريحا
من اثبات حقها في هذه الدعوى ، على ان هذه واحة صغيرة اذا
قورنت بدمشق ، ونحن نتكلم عن المدن . هذا التاريخ الطويل
المعرق في القدم لا يمكن عرضه الآن ، ولكن لا يمكن اهماله
اهيلاً تاماً ايضاً .

لفت هذا الموقع الخطير نظر الآراميين اليه فاستقروا هناك
في الالف الثالث ق. م. واذ اصبح هؤلاء سادة التجارة الشرقية
نمت دمشق بذلك ، واصبحت تقارن بصور وصيدا ، سوقي
ابناء عمومتهم الفينيقيين . كان قلب المدينة الآرامية هو التل
الذي يتوسط دمشق القديمة حيث كان يقوم الهيكل والقصر ،
تحيط بهما الاسواق واماكن السكن . وقد بلغت دمشق درجة
من القوة يسرت لها ان تتراأس حلفاً من امراء سورية وفلسطين
استطاع ان يقاوم الهجمات الاشورية بين القرنين الحادي عشر
والثامن ق. م. لكن الاشوريين تمكنوا اخيراً من الانقضاض
على اعدائهم كالوحوش الكاسرة ، فوقعوا جميعاً فريسة لهم .
ومع ان دمشق لم تفقد اهميتها باعتبارها نقطة لالتقاء الطرق
التجارية ، فان مكانتها لم تعد كونها عاصمة لولاية ؛ وهي المكانة
التي ظلت لها في ايام الاشوريين والكلدانيين والفرس والاعاقر

والرومان والبيزنطيين . وقد عرف الرومان لدمشق اهميتها
اكثر من الامم التي خلفتهم ، فوسّعوا رقعتها ، وجعلوها جزءاً
من خط الدفاع الشرقي . وكان شكل المدينة ، وهو الشكل
الذي حافظت عليه مدة طويلة من الزمن ، مستطيلاً .

كان فتح العرب لدمشق سنة ١٥ / ٦٣٦ بدءاً لعهد جديد
في تاريخ المدينة ، اذ ان الامر لم يقتصر على تبديل في ثقافة
السكان ودينهم ولغتهم في دمشق والمنطقة المحيطة بها ، بل ان
المدينة كانت بين سنتي ٤١ / ٦٦١ و ١٣٢ / ٧٥٠ عاصمة الامبراطورية
الاموية التي امتدت من نهر السند الى البرانس . وقد أقام
الامويون الابنية الكثيرة فيها ، كما يشهد بذلك القصر الاخضر
الذي شاده معاوية مؤسس الدولة . ولكن الاثر المعماري الذي
يقوم شاهداً على ما حققه الامويون في البناء هو الجامع الاموي
الكبير ، الذي تركزت حوله حياة دمشق .

ولم يكن التغير الذي اصاب البلاد من حيث الدين تاماً . فقد
ظل ثمة مسيحيون يعيشون هناك محافظين على شعائهم الدينية .
ومع ان انطاكية كانت اولاً قاعدة الرئاسة الدينية ، فان دمشق
انتزعت ذلك منها فانتقل اليها البطاركة مثل بطاركة الكنيسة
الارثوذكسية . وقد كان للمسيحيين في العصور المتوسطة ، كما
كان لليهود ، احياءهم الخاصة في المدينة .

كان القضاء على الدولة الاموية ، وقيام الدولة العباسية سنة ٧٥٠/١٣٢ ، ايذاناً بتقلص دور دمشق في الحياة السياسية العامة ، واقتصارها على دور ثانوي . الا ان ما في المدينة من الصلابة وما عرف عنها من الحيوية ، مكناها ، في هذه الفترة ، حياة مستمرة محترمة وان لم يتح لها ان تتسلم مكان الرياسة . ثم تلا ذلك عهود آل زنكي والايوبيين والمماليك - وسنتحدث عنها فيما بعد .

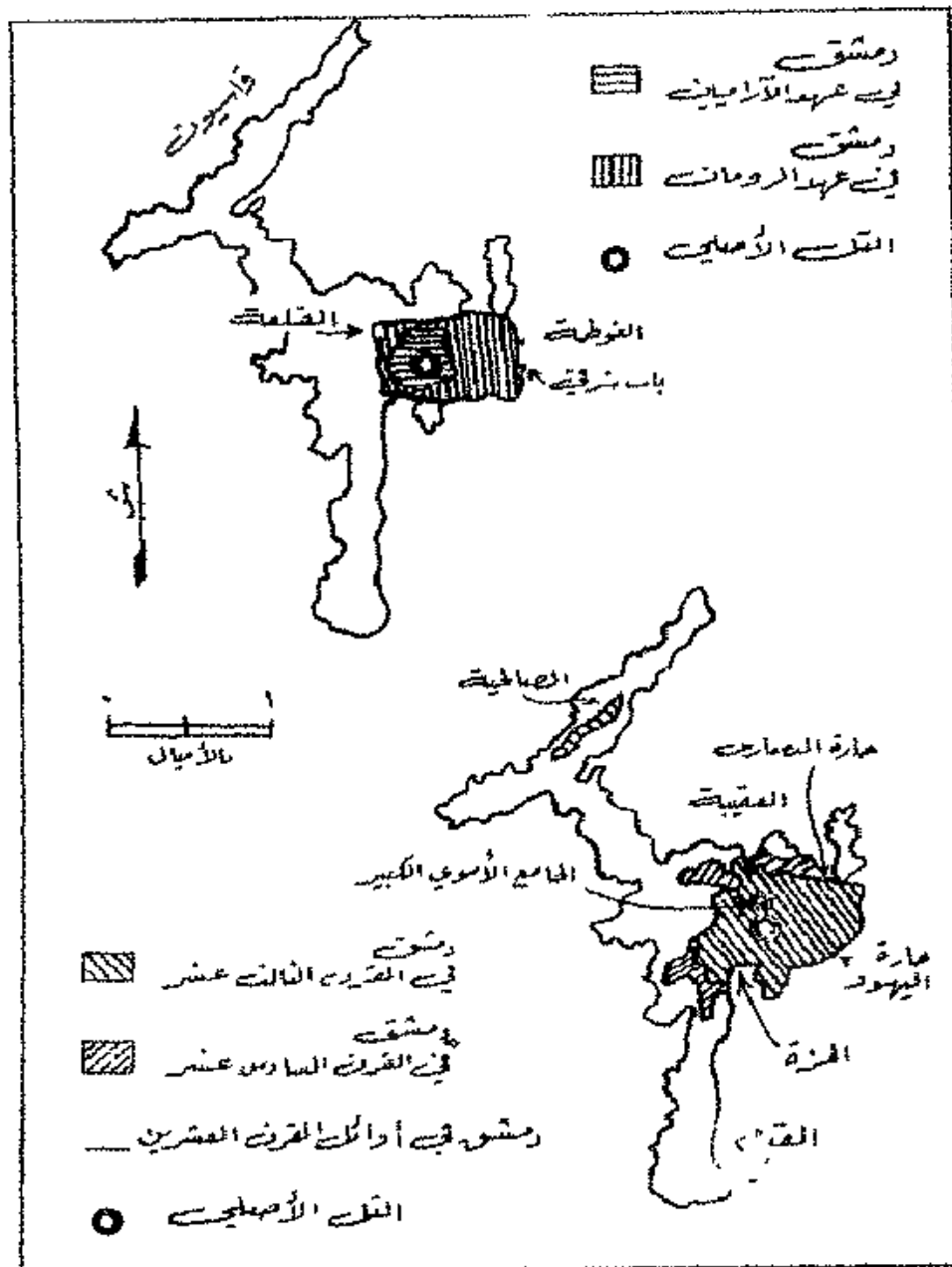
. . .

ما اسهل ان يكتب تاريخ مدينة دمشق لكن الامر يختلف مع الاسطورة . فالأخبار الاسطورية يتداخّل بعضها في البعض الآخر تداخلاً بعيداً عن المنطق ، بحيث لا يمكن تحريرها . ولكن أهو من الضروري ان تحلّل الاسطورة وتفكك اجزاؤها ؟ الا تفقد كل ما فيها من سحر اذا هي تعرضت للتحليل والتشريح ؟

لقد اجتذبت دمشق الاسطورة فاستقرت فيها فاعمة الببال ، وحملت اليها اسماء كثيرة بعضها جاء من عالم القداسة ، والآخر من عالم الوثنية . كان آدم وحواء يقيان في الجنة حيث الحياة هينة فاعمة هائلة . ولكنهما بسبب عصيانها امر الله طردا من الفردوس وحرم عليهما دخوله . هذه القصة اعجب بها العرب

(وهم الذين لم يكونوا يعرفون سوى الاراضي الفقراء على
الغالب) اعجاباً كبيراً ، ولم يجدوا سوى دمشق مكاناً يصلح
لهذه القصة ، ومن ثم فقد صارت هذه البلدة موطن آدم الاول .
ومن حق القاريء ان يذكر ان دمشق لم تكن المكان الوحيد
الذي منح هذا الشرف ، الا ان ما يعنيننا هنا هو صلة الموضوع
بدمشق .

كانت الغيرة تملأ قلوب قرية ابي البشر على نحو ما تعمل في
نفوسنا اليوم . وكان احد ابليه راعياً بينما انصرف الآخر الى
الزراعة . وتقول الاسطورة ان الاخوين قدما القربان لله ، فقبل
ثمار الارض التي قدمها هابيل لكنه لم يمسّ قربان قابيل الراعي .
فامتلاً قلب قابيل حقداً ، فقتل اخاه : وكانت الغيرة هي الباعث
على القتل — فقد امتلاً قلب الراعي المحتاج الفقير غيرة من اخيه
الثري . كانت الاسطورة بحاجة الى مكان يمكن ان يعيش فيه
الراعي والفلاح متقاربين ، على ان يختلف نتاج الواحد عن نتاج
الآخر اختلافاً يبنياً بحيث يثير الغيرة . وكانت دمشق المكان
المناسب . فالخوطة يوحى منظرها بالخصب والثراء ، بينما تمتد
الى الشمال والشرق والجنوب منها مراعي فقيرة نسيماً . وكانت
ثمة مكان مرتفع حيث يمكن ان تقدم القرابين ، وحيث تهبط
النار المقدسة من السماء لتحرق من القربان ما تقبله القوى العلوية .
ومن ثم فقد اصبحت دمشق بيت كل من قابيل وهابيل .



وقد صعق جبل قاسيون ، وهو الجبل الذي تقعد دمشق
سفحه ، بسبب قتل الاخ اخاه ، وندت عنه صرخة انطلقت من
غار لا يزال قائماً هناك . وكان دم هابيل البريء لا يزال ظاهراً
للعيان في القرن السادس (الثاني عشر) ، على الصخرة حيث اراق
اخوه دمه . ومن ثمة فقد كان هناك شاهدان يذكّران الناس
دوماً بقسوة الفعلة الشنعاء . وامتألت نفس آدم بالألم حزناً على
ابنه ، واذ لم يكن ثمة ائاس يقومون بتعزيته ، فقد هبط
الملائكة ، وعلى رأسهم جبريل ، للقيام بدور المعزين . وكان
الموضع الذي تلقى فيه آدم التعزية هو كهف جبريل .

كان تارح ، ابو ابراهيم ، يصنع التماثيل للعبادة ، ولكن ابنه
ابراهيم ، الذي كان قد عرف الحق ، كان لا يقبل بذلك ، فحطم
التماثيل التي كان ابوه يصنعها . ويبدو انه خطر للبعض في وقت
ما ان يقيم اهل البر واهل الجمل في الرقعة المذكورة فكان تارح
يمثل هؤلاء ، بينما كان ابراهيم يمثل اولئك . وجيء بهما الى دمشق
التي اصبحت مسكنهما ، وقرقرارهما في بيت لمية .

وقد نقل السيد المسيح وأمه السيدة العذراء الى دمشق — الى
الربوة . فالقرآن الكريم يشير اليهما على انهما استقرا في ربوة
ذات قرار معين . وكانت هذه التلة الجميلة في الضاحية الدمشقية
المكان الملائم الذي اختاره بعض المفسرين لذلك . الا ان
الاسطورة ، التي ارادت توضيح الامر تماماً ، رأت ان تنقل

موطن القديسة حنة ، والددة السيدة العذراء ، من الناصرة الى
النيرب على مقربة من دمشق . وكان من الطبيعي ان يذهب
يسوع وامه الى هناك ، اذ ان الامر لم يكن اكثر من زيارة الى
بيت الاسرة .

ويذهب اكثر المؤرخين الى ان النبي لم تطأ قدماء دمشق ،
لكن الاسطورة جعلت زيارته الى تلك الجهات امراً واقعاً ، الا
انها كانت حذرة ، فقد اوصلته « القدم » الشريف ، جنوبي
دمشق ، حيث كان من الممكن ان يرى الناس آثار قدمه
المباركة . وقد اراني بعضهم في صغري ما اصر على انه آثار
قدم النبي .

وقد تضخمت هذه الاساطير مع الزمن ، وجاءت بعض
الاحاديث المتحولة تؤيدها وتزيد مجد دمشق . ومع مر القرون
تأصلت هذه الاحاديث والاساطير وتوثقت صلتها بدمشق
وقبلها الناس . وعامة الناس يقبلونها كلها بقطع النظر عن ولائهم
الديني او الطائفي .

هذه هي دمشق التي نعتزم ان نروي قصتها في ايام المماليك.
انها المدينة التي تركت اثرها في نفوس سكانها وزائريها الى
اليوم . لقد تطورت وتبدلت ، وقد خبرت سادة ورفضت عنها
سادة — لكن ظل ثمة امران قائمان فيها : روح لا تغلب وسحر
لا يبطل .

١ المَالِيك

في سنة ١١٧١/٥٦٧ قضى صلاح الدين الايوبي ، وزير الخليفة الفاطمي ، على الخلافة الفاطمية وانصرف الى توطيد سلطانه في مصر . وقد كان حذراً في خطوه ، لانه لم يكن في صالحه ان ينفر منه سيده نور الدين في دمشق . الا ان وفاة هذا سنة ١١٧٤/٥٧٠ اتاحت لصلاح الدين فرصة العمل الحر . فزار سورية في وقت لاحق من السنة نفسها ، ثم اقتصر في معركة في السنة التالية ، وبذلك خضعت سورية المسلمة لسلطانه . واخذ صلاح الدين يعد العدة لمقارعة الدول اللاتينية ، ثم جاء انتصاره على الصليبيين في معركة حطين ١١٨٧/٥٨٣ فتم له توسيع ممتلكاته . الا ان وفاته في دمشق سنة ١١٩٣/٥٩٠ ادت الى توقف القتال ولو مؤقتاً .

انشأ صلاح الدين امبراطورية امتدت من الموصل الى جنوب مصر واقام اسرة امتد حكمها الى سنة ١٢٥٠/٦٤٨ (وقد استمرت في بعض انحاء سورية الى العقد السابع او حتى بعد ذلك بقليل) . الا ان خلفاءه وقعوا ، في بعض القوات ، فريسة للحروب الاهلية والخصومات الاقطاعية ، مما اضعف المملكة

حتى اضطر الكامل ان يعقد سنة ١٢٢٩/٦٢٧ معاهدة مع
فرديريك الثاني منحه بموجبها القدس وبيت لحم والناصرية .

وقد انتهى الامر بالدولة الصلاحية ان ورثها المماليك الذين
حكموا مصر وفلسطين ولبنان وسورية من ١٢٤٨/٦٤٨ الى سنة
١٥١٧/٩٢٣ ، حين انتصر عليهم الاتراك العثمانيون واستولوا على
المنطقة .

كان المماليك رقيقاً من اجناس متعددة حمله تجار الرقيق من
اماكن متباعدة ، وكان المالك لهم يدرهمهم على فنون الحرب لكي
يقوموا على حراسته . وكان الحكم الذي اقاموه حكماً عسكرياً
استمر نحو ثلاثة قرون ، كانت السلطة فيه من نصيب الرجل
المتصف بالاقدام والشجاعة والجرأة على ان يجمع الى ذلك المقدرة
على الدس والخديعة . وكان المماليك يعتبرون السلطان الحاكم
على انه الاول بين الاقران ، وكان عليه ان يشدد الرقابة على
انصاره ، اذ لم يكن في سلوك المماليك السياسي شيء اسهل عليهم
من تبديل الولاء والتبعية .

ولم يقتصر اقتناء الحرس الخاص على السلطان ، بل ان كل
امير من المماليك كان له حرسه الخاص ، او جيشه الخاص من
الرقيق ، الذي كان ينفق هو عليه . ولما كان للسلطان موارد
مالية اكبر ، كان اتباعه وانصاره اكبر عدداً . فاذا عجز عن
ارضائهم كان نصيبه العزل او النفي او حتى القتل .

وكان الايوبيون ، اقتباعاً لما سار عليه العرف السياسي في الاسلام ، قد وضعوا لانفسهم موافقة الخليفة العباسي في بغداد ودعواته الصالحات . وقد اتى للسلطان المملوكي الاول ان يتمتع بهذا الامتياز ، لكن القضاء على الخلافة العباسية على ايدي التتار سنة ١٢٥٨/٦٥٦ جرد المماليك من هذا الشرف . وكان بيبرس (١٢٦٠/٦٥٨ - ١٢٧٦/٦٧٥) يشمر بالحاجة الى خليفة ، فجاء بعباسي ممن فجوا من القتل في بغداد ، وبايعه خليفة في سنة ١٢٦٠/٦٥٨ . وعندها فوض الخليفة ، بوصفه امير المؤمنين ، الى السلطان القيام بمهام الدولة وامورها ، بحيث كان منصب الخليفة ، في العهد المملوكي منصباً اسماً . وكان السلطان يسمى صاحب المملكة وكانت كلمته نافذة نفوذ القانون في طول البلاد وعرضها . وقد ظل المماليك ارسقراطية عسكرية ، فاحتكروا الوظائف العسكرية فاركبن لاهل البلاد ، الذين كانوا يختارونهم هم طبعاً ، الوظائف الدينية ووظائف الكتّاب .

وكان على المماليك ، وهم يقومون بتثبيت سلطانهم ، ان يواجهوا خصمين عنيدين : فالصليبيون كانوا لا يزالون يحتلون الاقسام الساحلية من فلسطين ولبنان وسورية ، والتتار كانوا ، بعد ان فجعوا في احتلال بغداد والقضاء على سادتها ، يتجهون غرباً بقضهم وقضيضهم .

وقد قاد المماليك حملات مركزة عنيفة ضد التحصينات

الصليبية المتداعية ، بحيث سقط آخر حصن متسعين في ايدي المماليك سنة ١٢٩١/٦٩٠ . وقد وقع العبء الاكبر في احراز هذا النصر على كاهل ثلاثة من السلاطين هم : بيبرس والناصر قلاوون (١٢٧٩/٦٧٨ - ١٢٩٠/٦٨٩) والملك الاشرف خليل (١٢٩٠/٦٨٩ - ١٢٩٣/٦٩٢) . ولا يتسع المجال هنا لبحث تفاصيل هذه الحملات ، على اثنائنا ان نذكر القارىء بان الحملات كانت عنيفة ، وقد تركت في اعقابها الكثير من الدمار ، وخاصة في المدن الساحلية ، مما ادى الى شل المنطقة اجيالاً طويلة .

وكان الخطر المغولي اشد لان جموعهم كانت اكبر عدداً وحببهم للقتال وازاقة الدماء لا حد له . وما اكثر ما عاثوا في الارض يهدمون المدن والساكنين ويهزمون الالوف من الارواح ويحملون مهرة الصنائع الى اواسط آسية . على ان المماليك وقفوا في وجه الخطر اول الامر ، وفي القرن التاسع (الخامس عشر) بلغت موجة الانسياح المغولي حدها ، بالنسبة لسورية على الاقل ، فزال خطرهما لانها ارتدت بعد ذلك على اعقابها .

وكان اول انكسار مني به المغول على ايدي المماليك في معركة عين جالوت في شمال فلسطين سنة ١٢٦٠/٦٥٨ . على ان عدداً من الحملات الخيرية تمت على ايدي المغول فيما بعد اهمها اثنتان : الاولى غزوة قازان (١٢٩٩/٦٩٨) التي احتل فيها المدن الشمالية وانتصر على جيش الناصر محمد قرب حصن واحتل

دمشق ، واستباح جنده المدينة حتى قيل ان القتل فيها بلغوا
مائة الف . لكن قازان ترك المدينة سنة ١٣٠٠/٦٩٩ م خلفاً فيها
نائباً عنه . وقد خلف لنا ابن كثير ، مؤرخ القرن الثامن (الرابع
عشر) ، وصفاً حياً لحملة قازان على دمشق ، قال :

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستائة وفيها كانت وقعة
قازان ... وقد تواترت الاخبار بقصد التتار بلاد الشام ،
وقد خاف الناس من ذلك خوفاً شديداً ، وجفل الناس من
بلاد حلب وحماة ، وبلغ كرى الخيل من حماة الى دمشق نحو
المائتي درهم ، فلما كان يوم الثلاثاء ثاني المحرم ضربت البشائر
بسبب خروج السلطان من مصر قاصداً الشام ، فلما كان
يوم الجمعة ثامن ربيع الاول دخل السلطان الى دمشق في مطر
شديد ووحل كثير ، ومع هذا خرج الناس لتلقيه ، وكان
قد اقام بغزة قريباً من شهرين ، وذلك لما بلغه قدوم التتار
الى الشام ، فتهيأ لذلك وجاء فدخل دمشق فنزل بالطارمة ،
وزينت له البلد ، وكثرت له الادعية وكان وقتاً شديداً ،
وحالاً صعباً ، وامثلاً البلد من الجافلين النازحين عن بلادهم ،
وجلس الاعسر وزير الدولة وطالب العمال واقترضوا اموال
الايتم واموال الاسرى لاجل تقوية الجيش ، وخرج السلطان
بالجيش من دمشق يوم الاحد سابع عشر ربيع الاول ، ولم
يتخلف احد من الجيوش ، وخرج معهم خلق كثير من

المتطوعة ، واخذ الناس في الدعاء والقنوت في الصلوات
بالجامع وغيره ، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا الى الله بالادعية .

لما وصل السلطان الى وادي الخزندار عند وادي سلمية ،
فالتقى التتر هناك يوم الاربعاء السابع والعشرين من ربيع
الاول فالتقوا معهم فكسروا المسلمين وولت السلطات
هارباً فانا لله وانا اليه راجعون ، وقتل جماعة من الامراء
وغيرهم ومن العوام خلق كثير ، وفقد في المعركة قاضي قضاة
الحنفية ، وقد صبروا وأبلاوا بلاء حسناً ، ولكن كان أمر الله
قدرأ مقدوراً ، قولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد ، ثم
كانت العاقبة بعد ذلك للمتقين ، غير انه رجعت العساكر
على اعقابها للديار المصرية واجتاز كثير منهم على دمشق ،
وأهل دمشق في خوف شديد على انفسهم واهليهم وأموالهم ،
ثم انهم استكانوا واستسلموا للقضاء والقدر

وفي ليلة الاحد ثاني ربيع الاول كسر الحبوسون بحبس
باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حمية ، وتفرقوا في
البلد ، وكانوا قريباً من مائتي رجل ، فنهبوا ما قدروا عليه ،
وجاءوا الى باب الجابية فكسروا اقفال الباب البراني
وخرجوا منه الى بر البلد ، فتفرقوا حيث شاءوا لا يقدر
احد على ردهم ، وعاشت الحرافشة في ظاهر البلد فكسروا
ابواب البساتين وقلعوا من الابواب والشبابيك شيئاً كثيراً ،

وباعوا ذلك بأرخص الاثمان ، هذا وسلطان التتار قد قصد دمشق بعد الواقعة ، فاجتمع اعيان البلد والشيخ تقي الدين ابن تيمية في مشهد عليّ واتفقوا على المسير الى قازان لتلقيه ، واخذ الامان منه لاهل دمشق ، فتوجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر فاجتمعوا به عند النبك ، وكلّمه الشيخ تقي الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفسها على المسلمين ولله الحمد . ودخل المسلمون ليلتئذ من جهة قازان فنزلوا بالبدرانية وغلقت ابواب البلد سوى باب قوما ، وخطب الخطيب بالجامع يوم الجمعة ، ولم يذكر سلطاناً في خطبته ، وبعد الصلاة قدم الامير اسماعيل ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطرن . وحضر الفرمان بالامان وطيف به في البلد ، وقرىء يوم السبت ثامن الشهر بمقصورة الخطابة ، ونثر شيء من الذهب والفضة . وفي ثاني يوم من المناداة بالامان طلبت الخيول والسلاح والاموال الخبأة عند الناس من جهة الدولة ، وجلس ديوان الاستخلاص اذ ذاك بالمدرسة القيمرية ، وفي يوم الاثنين عاشر الشهر قدم سيف الدين قبيجق المنصوري فنزل في الميدان واقترب بجيش التتر وكثر العيث في ظاهر البلد ، وقتل جماعة وغلت الاسعار بالبلد جداً ، وارسل قبيجق الى نائب القلعة ليسلمها الى التتار فامتنع ارجواش من ذلك اشد الامتناع ، فجمع له قبيجق اعيان البلد فكلّوه ايضاً فلم يجبهم الى ذلك ، وصم على ترك تسليمها اليهم وبها عين تطرف ، فان الشيخ تقي الدين

ابن تيمية ارسل الى نائب القلعة يقول له ذلك : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلهم ذلك ان استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لاهل الشام فان الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لاهل الشام

وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر مُخطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ، ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بضيافة قبجق على الشام ، وذهب اليه الاعيان فهناؤه بذلك ، فأظهر الكرامة وانه في تعب عظيم مع التتار ، ونزل شيخ المشايخ محمود بن علي الشيباني بالمدرسة العادلية الكبيرة . وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرفية بها واحترق جامع التوبة بالعقيدية

ولما فكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الاولى قتلوا خلقاً من الرجال واسروا من النساء كثيراً ، وقال قاضي القضاة تقي الدين اذى كثير ، ويقال انهم قتلوا من اهل الصالحية قريباً من اربعمائة ، واسروا نحواً من اربعة آلاف اسير ، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية ، وخزانة ابن البزوري ، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية ، وفعلوا بالمرزة مثل ما فعلوا بالصالحية ، وكذلك

بداريا وبغيرها ، وتحصن الناس منهم في الجامع بداريا
ففتحوه قسراً وقتلوا منهم خلقاً وسبوا نساءهم واولادهم ،
فانا لله وانا اليه راجعون .

وخرج الشيخ ابن تيمية في جماعة من اصحابه يوم الخميس
العشرين من ربيع الآخر الى ملك التتار وعاد بعد يومين ولم
يتفق اجتماعه به

واشتهر بالبلد ان التتار يريدون دخول دمشق فانتزع
الناس لذلك وخافوا خوفاً شديداً ، وارادوا الخروج منها
والهرب على وجوههم ، وأين الفرار ولات حين مناص ،
وقد اخذ من البلد فوق العشرة آلاف فرس ، ثم فرضت
اموال كثيرة على البلد موزعة على اهل الاسواق كل سوق
بحسبه من المال ، فلا قوة الا بالله . وشرع التتار في عمل مجانيق
بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع ، وغلقت ابوابه
ونزل التتار في مشاهده يحرسون اخشاب المجانيق ، وينهبون
ما حوله من الاسواق ، واحرق ارجواش ما حول القلعة من
الابنية ، كدار الحديث الاشرفية وغير ذلك ، الى حد
العادية الكبيرة ، واحرق دار السعادة لئلا يتمكنوا من
محاصرة القلعة من اعاليها ، ولزم الناس منازلهم لئلا يسخروا
في طم الخندق ، وكانت الطرقات لا يرى بها احد الا القليل ،
والجامع لا يصلي فيه احد الا اليسير ، ويوم الجمعة لا يتكامل

فيه الصف الاول وما بعده الا يجهد جهيد ، ومن خرج من منزله في ضرورة يخرج بغياب زيم ثم يعود سريعاً ، ويظن انه لا يعود الى اهله ، واهل البلد قد اذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، فاننا لله وانا اليه راجعون .

والمصادرات والتراسيم والعقوبات عمالة في اكابر اهل البلد ليلاً ونهاراً ، حتى أخذ منهم شيء كثير من الاموال والاقواف ، كالجوامع وغيره ، ثم جاء مرسوم بصيانة الجامع وتوفير اوقافه وصرف ما كان يؤخذ بخزائن السلاح والى الحجاز ، وقرىء ذلك المرسوم بعد صلاة الجمعة بالجامع في تاسع عشر جمادى الاولى ، وفي ذلك اليوم توجه السلطان قازان وترك نوابه بالشام في ستين الف مقاتل نحو بلاد العراق ، وجاء كتابه : انا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين الف مقاتل ، وفي عزمنا العود اليها في زمن الخريف ، والدخول الى الديار المصرية وفتحها . وقد اعجزتهم القلعة ان يصلوا الى حبر منها ، وخرج سيف الدين قبيجق لتوديع قطلو شاه نائب قازان ، وسار وراءه وضربت البشائر بالقلعة فرحاً لرحيلهم ، ولم تفتح القلعة ، وأرسل ارجواش ثاني يوم من خروج قبيجق القلعة الى الجامع فكسروا اخشاب المتجنقات المنصوبة به ، وعادوا الى القلعة سريعاً سالمين

قال الشيخ علم الدين البرزالي : ذكر لي الشيخ وجيه الدين

ابن المنجا انه حمل الى خزانة قازان ثلاثة آلاف الف وستائة
الف درهم ، سوى ما تمحق من التراسيم والبراطيل وما أخذ
غيره من الامراء والوزراء ، وان شيخ المشايخ حصل له نحو من
ستمائة الف درهم ، والاصيل ابن النصير الطوسي مائة الف ،
والصفي السخاري ثمانون ألفاً . وعاد سيف الدين قبجق الى
دمشق يوم الخميس بعد الظهر خامس عشرين جمادى الاولى
ومعه الاليكي وجاعة ، وبين يديه السيوف مسلة وعلى رأسه
عصابة . فتزل بالقصر وفودي بالبلد نائبكم قبجق قد جاء
فافتحوا دكاكينكم واعملوا معاشكم ولا يغرر احد بنفسه هذا
الزمان ، والاسعار في غاية الغلاء والقلة ، قد بلغت الفرارة
الى اربعمائة ، واللحم الرطل بنحو العشرة ، والخبز كل
رطل بدرهمين ونصف ، والعشرة الدقيق بنحو الاربعين ،
والجن الاوقية بدرهم ، والبيض كل خمسة بدرهم . ثم فرج
عنهم في اواخر الشهر ، ولما كان في اواخر الشهر نادى قبجق
بالبلد ان يخرج الناس الى قراهم وأمر جماعة وانضاف اليه
خلق من الاجناد ، وكثرت الارجيف على بابه ، وعظم
شأنه ودقت البشائر بالقلعة وعلى باب قبجق يوم الجمعة رابع
جمادى الآخرة ، وركب قبجق بالعصائب في البلد والشاوشية
بين يديه ، وجهاز نحواً من الف فارس نحو خربة اللصوص ،
ومشى مشي المملوك في الولايات وتأمير الامراء والمراسيم
العالية النافذة

ثم انه ضمن الخمرات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها،
وجعلت دار ابن جرادة خارج من باب قوما خمارة وحانة
ايضاً ، وصار له على ذلك في كل يوم الف درهم ، وهي التي
دمرته وبحقت آثاره . واخذ اموالاً آخر من اوقاف المدارس
وغیرها .

وفي ثامن رجب طلب قبجق القضاة والاعيان فحلفهم
على المناصحة للدولة المممودية — يعني قازان — فحلفوا له ،
وفي هذا اليوم خرج الشيخ تقي الدين بن تيمية الى نعيم بولاي
فاجتمع به في فسكاك من كانت معه من اسارى المسلمين ،
فاستنقذ كثيراً منهم من ايديهم ، وأقام عنده ثلاثة ايام ثم
عاد، ثم راح اليه جماعة من اعيان دمشق ثم عادوا من عنده
فشلتحوا عند باب شرقي وأخذ ثيابهم وعمائمهم ورجعوا في
شرّ حالة، ثم بعث في طلبهم فاخطفى اكثرهم وتغيبوا عنه،
ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة
بان العساكر المصرية قادمة الى الشام . وفي عشية يوم السبت
رحل بولاي واصحابه من التتار وانشعروا عن دمشق وقد
اراح الله منهم وساروا من على عقبة دمر فعاثوا في قللك
النواحي فساداً، ولم يأت سابع الشهر وفي حواشي البلد منهم
أحد، وقد ازاح الله عز وجل شرهم عن العباد والبلاد

وتقلق قبجق من البلد . ثم انه خرج منها في جماعة من

رؤسائها واعيانها منهم عز الدين ابن القلانسي ليتلقوا الجيش المصري ، وذلك ان جيش مصر خرج الى الشام في تاسع رجب وجاءت البريدية بذلك ، وبقي البلد ليس به احد ، ونادى ارجواش في البلد احفظوا الاسوار واخرجوا ما كان عندهم من الاسلحة ولا تهللوا الاسوار والابواب ، ولا يبيتن احد الا على السور ، ومن يات في داره شتى ، فاجتمع الناس على الاسوار لحفظ البلاد ، وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يدور كل ليلة على الاسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط .

وفي يوم الجمعة سابع عشر رجب اعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر ففرح الناس بذلك ، وكان يخطب لقازان بدمشق وغيرها من بلاد الشام مائة يوم سواء . وفي بكرة يوم الجمعة المذكور دار الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله واصحابه على الخنارات والحانات فكسروا آنية الخمر وشققوا الظروف وارقوا الخمر ، وعزّروا جماعة من اهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش ، ففرح الناس بذلك . وفودي يوم السبت ثامن عشر رجب بأن تزّين البلد لقدم العساكر المصرية ، وفتح باب الفرج مضافاً الى باب النصر يوم الاحد تاسع عشر رجب ، ففرح الناس بذلك وانفرجوا لانهم لم يكونوا يدخلون الا من باب النصر ، وقدم الجيش

الثامي صحبة نائب دمشق جمال الدين آقوش الاقرم يوم
السبت عاشر شعبان ، وثاني يوم دخل بقية العساكر

وفي الحادي والعشرين من ذي القعدة استعرض نائب
السلطنة اهل الاسواق بين يديه ، وجعل على كل سوق
مُقدِّماً وحوله اهل سوقه ، وفي الخميس رابع عشرينه
عرضت الاشراف مع نقيبهم نظام الملك الحسيني بالعدد
والتجمل الحسن ، وكان يوماً مشهوداً

ثم دخلت سنة سبعمائة من الهجرة النبوية . . . وفي مستهل
صفر وردت الاخبار بقصد التتار بلاد الشام ، وانهم عازمون
على دخول مصر ، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على
ضعفهم ، وطاشت عقولهم وألباهم ، وشرع الناس في الهرب
الى بلاد مصر والكرك والشويك والحصون المنيعه ، فبلغت
الحجارة الى مصر خمسمائة وبيع الجمل بألف والحمار بخمسمائة ،
وبيعت الامتعة والشباب والغلات بأرخص الاثمان ، وجلس
الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع
وحرّض الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والاحاديث
الواردة في ذلك ، ونهى عن الاسراع في الفرار ، ورغب في
انفاق الاموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ،
وان ما ينفق في اجرة الحرب اذا اتفق في سبيل الله كان
خيراً ، وأوجب جهاد التتار حتماً في هذه الكرة ، وتابع

المجالس في ذلك . ونودي في البلاد لا يسافر احد الا بمرسوم
وورقة ، فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم ، وتحدث
الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر ودقت البشائر
لخروجه

وفي اول ربيع الآخر قوي الارجاف بأمر التتار ، وجاء
الخبر بأنهم قد وصلوا الى البيرة ، ونودي في البلد ان تخرج
العامه مع العسكر ، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك ،
فاستعرضوا في اثناء الشهر فعرض نحو خمسة آلاف من العامه
بالعدة والاسلحة على قدر طاقتهم ، وقنت الخطيب ابن
جماعة في الصلوات كلها ، واتبعه أئمة المساجد ، وأشاع
المرجفون بأن التتار قد وصلوا الى حلب وان نائب حلب
تقهقر الى حماة ، ونودي في البلد بتطيب قلوب الناس
واقبالهم على معاشهم

ثم جاءت الاخبار بأن سلطان مصر رجع عائداً الى
مصر بعد ان خرج منها قاصداً الشام ، فكثر الخوف واشتد
الحال ، وكثرت الامطار جداً ، وصار بالطرقات من
الاورحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريد من
الانتشار في الارض والذهاب فيها ، فانا لله وانا اليه راجعون .

وخرج كثير من الناس خفاً وثقالاً يتحملون بأهليهم

واولادهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وجهلوا
يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة ، على الدواب
والرقاب ، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة
الامطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء فلا حول
ولا قوة الا بالله .

واستهل جمادى الاولى والناس على خطبة صعبة من
الخوف ، وتأخر السلطان واقترب العدو ، وخرج الشيخ
تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في مستهل هذا الشهر ،
وكان يوم السبت ، الى نائب الشام في المرج فثبتهم وقوى
جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الاعداء ،
وقلا قوله تعالى : « [ذلك] ومن عاقبَ بِمِثْلِ مَا
عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ
غَفُورٌ » . وبات عند العسكر ليلة الاحد ثم عاد الى دمشق
وقد سأله النائب والامراء ان يركب على البريد الى مصر
يستحث السلطان على المجيء ، فساق وراء السلطان ، وكان
السلطان قد وصل الى الساحل فلم يدركه الا وقد دخل
القاهرة وتفرط الحال ، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر
الى الشام ان كان لهم به حاجة ، وقال لهم فيما قال : ان
كنتم اعرضتم عن الشام وحمايته اقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه
ويستغله في زمن الامن ، ولم يزل بهم حتى جردت العساكر
الى الشام ، ثم قال لهم : لو قدر انكم لستم بحكام الشام ولا

ملوكه واستنصركم اهل وجب عليكم النصر ، فكيف وانتم
حكامه وسلاطينه وهم رعايكم وانتم مسئولون عنهم ، وقوى
جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا الى الشام ،
فلما تواصلت المعسكر الى الشام فرح الناس فرحاً شديداً بعد
ان كانوا قد يؤسوا من انفسهم واهليهم واموالهم ، ثم قويت
الاراجيف بوصول التتار ، وتحقق عود السلطان الى مصر ،
ونادى ابن النحاس متولّي البلد في الناس : من قدر على
السفر فلا يقعد بدمشق ، فتصايح النساء والولدان ، ورهق
الناس ذلة عظيمة وخدة ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وغلّقت
الاسواق وتيقنوا ان لا ناصر لهم الا الله عز وجل ، وان
نائب الشام لما كان فيه قوة مع السلطان عام أول ، لم يقو على
التقاء جيش التتار فكيف به الآن وقد عزم على الحرب ؟
ويقولون : ما بقي اهل دمشق الا طعمة العدو ، ودخل
كثير من الناس الى البراري والقفار والمغرب بأهاليهم من
الكبار والصغار ، ونودي في الناس من كانت نيته الجهاد
قليلحق فقد اقترب وصول التتار ، ولم يبق بدمشق من
اكبرها الا القليل

ورجع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في
السابع والعشرين من جمادى الاولى على البريد ، وأقام بقلعة
مصر ثمانية ايام يحثهم على الجهاد والخروج الى العدو ، وقد
اجتمع بالسلطان والوزير وأعيان الدولة فأجابوه الى الخروج ،

وقد غلت الاسعار بدمشق جداً ، حتى بيع خاروقات
بخمسمائة درهم . واشتد الحال ، ثم جاءت الاخبار بأن ملك
التتار قد خاض الفرات راجعاً عامه ذلك لضعف جيشه وقلة
عددهم ، فطابت النفوس لذلك وسكن الناس ، وعادوا الى
منازلهم مفترحين آمنين مستبشرين . ولما جاءت الاخبار
بعدم وصول التتار الى الشام في جمادى الآخرة تراجعت انفس
الناس اليهم وعاد نائب السلطنة الى دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعمائة من الهجرة ... وفي
ثامن عشر رجب قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين ...
فقويت القلوب واطمأن كثير من الناس ، ولكن الناس في
جفل عظيم من بلاد حلب وحماة وحمص وتلك النواحي
وتقهقر الجيش الحلي والحموي الى حمص ، ثم خافوا ان
يدهم التتار فجاموا فنزلوا المروج يوم الاحد خامس شعبان ،
ووصل التتار الى حمص ويعلمبك وعائلوا في تلك الاراضي
فساداً ، وقلق الناس قلقاً عظيماً ، وخافوا خوفاً شديداً ،
واختبئوا بالبلد لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش ، وقال
الناس لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار
لكثرتهم ، وانما سبيلهم ان يتأخروا عنهم مرحلة مرحلة .
وتحدث الناس بالاراجيف فاجتمع الامراء يوم الاحد المذكور
بالميدان وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا انفسهم ، ونودي
بالبلد ان لا يرحل احد منه ، فسكن الناس وجلس القضاة

بالجامع وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامّة على القتال .
وتوجه الشيخ تقي الدين بن تيمية الى المعسكر الواصل من
حماة فاجتمع بهم في القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الامراء
والناس من لقاء العدو ، فأجابوا الى ذلك وحلفوا معهم ،
وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية يحلف للامراء والناس انكم
في هذه الكرة منصورون ، فيقول له الامراء : قل ان شاء
الله ، فيقول ان شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً

ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان خرجت العساكر
الشامية فخيّمت على الجسورة من ناحية الكسوة ، ومعهم
القضاة ، فصار الناس فيهم فريقين : فريق يقولون انما ساروا
ليختاروا موضعاً للقتال فان المرج فيه مياه كثيرة فلا
يستطيعون منها القتال ، وقال فريق : انما ساروا لتلك
الجهة ليهربوا وليلحقوا بالسلطان . فلما كانت ليلة الخميس ساروا
الى ناحية الكسوة فقويت ظنون الناس في هربهم ، وقد
وصلت التتار الى قارة ، وقيل انهم وصلوا الى القطيعة ،
فانزعج الناس لذلك شديداً ولم يبق حول القرى والخواضر
احد . وامتألت القلعة والبلد وازدحمت المنازل والطرقات ،
واضطرب الناس وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية صبيحة
يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة ،
وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه ، فظنوا انه
انما خرج هارباً ، فحصل اللوم من بعض الناس وقالوا : انت

منعتنا من الجفل وها انت هارب من البلد . فلم يرد عليهم
وبقي البلد ليس فيه حاكم ، وجاس اللصوص والحرافيش
فيه وفي بساين الناس يخربون ويقتهبون ما قدروا عليه ،
ويقطعون الشمس قبل اوانه والباقلاء والقمح وسائر
الحضراوات ، وحيل بين الناس وبين خبر الجيش ،
وانقطعت الطرق الى الكسوة وظهرت الوحشة على البلد
والخواضر ، وليس للناس شغل غير الصعود الى المآذن
ينظرون يميناً وشمالاً ، والى ناحية الكسوة فتارة يقولون :
رأينا غيرة فيخافون ان تكون من التتار ، ويتعجبون من
الجيش مع كثرتهم وجودة عدتهم وعددهم ، أين ذهبوا ؟ فلا
يدرون ما فعل الله بهم ، فانقطعت الآمال وألح الناس في
الدعاء والابتهال وفي الصلوات وفي كل حال ، وذلك يوم
الخميس التاسع والعشرين من شعبان ، وكان الناس في خوف
ورعب لا يعبر عنه ، لكن كان الفرج من ذلك قريباً ،
ولكن اكثرهم لا يفلحون

فلما كان آخر هذا اليوم وصل الامير فخر الدين اياس
المرقبي احد امراء دمشق ، فبشر الناس بخير ، هو انت
السلطان قد وصل وقت اجتمعت العساكر المصرية والشامية ،
وقد أرسلني اكشف هل طرّق البلد أحد من التتار ، فوجد
الامر كما يجب لم يطرّقها احد منهم ، وذلك ان التتار عرجوا
من دمشق الى ناحية العساكر المصرية ، ولم يشتغلوا بالبلد ،

وقد قالوا ان غلبتنا فان البلد لنا ، وان غلبتنا فلا حاجة لنا به . ونودي بالبلد في تطييب الخواطر ، وان السلطان قد وصل ، فاطمان الناس وسكنت قلوبهم

أصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من الخوف وضيق الامر ، فرأوا من المآذن سواداً وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون ان الواقعة في هذا اليوم ، فابتهلوا الى الله عز وجل بالدعاء في المساجد والبلد ، وطلع النساء والصغار على الاسطحة وكشفوا رؤوسهم وضج البلد ضجة عظيمة ، ووقع في ذلك الوقت مطر عظيم غزير ، ثم سكن الناس . فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن ان في الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش الشامية والمصرية مع السلطان في مرج الصفر ، وفيها طلب الدعاء من الناس والامر بحفظ القلعة والتحرز على الاسوار . فدعا الناس في المآذن والبلد ، وانقضى النهار وكان يوماً مزعجاً هائلاً ، وأصبح الناس يوم الاحد يتحدثون بكسر التتار ، وخرج الناس الى ناحية الكسوة فرجعوا ومعهم شيء من المكاسب ، ومعهم رؤوس من رؤوس التتار ، وصارت كسرة التتار تقوى وتزايد قليلاً قليلاً حتى اتضحت جملة ، ولكن الناس لما عندهم من شدة الخوف وكثرة التتار لا يصدقون . فلما كان بعد الظهر قرئ كتاب السلطان الى متولي القلعة يخبر فيه باجتماع الجيش

ظهر يوم السبت بشقحب وبالكسوة ، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من نائب السلطان جمال الدين آقوش الأقرم الى نائب القلعة مضمونها ان الواقعة كانت من العصر يوم السبت الى الساعة الثانية من يوم الاحد ، وان السيف كان يعمل في رقاب التتار ليلاً ونهاراً ، وانهم هربوا وفروا واعتصموا بالجبال والتلال ، وانه لم يسلم منهم الا القليل . فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم وتياشروا لهذا الفتح العظيم والنصر المبارك ، ودقت البشائر بالقلعة من اول النهار المذكور ، ونودي بعد الظهر بإخراج الجفال من القلعة لاجل نزول السلطان بها ، وشرعوا في الخروج^١ .

وكانت الحملة المغولية الثانية على سورية حملة تيمور (تيمورلنك) الذي احتل البلاد سنة ١٤٠٢/٨٠٥ ، وكان يترك في اثره من الخراب والتلف والدمار والقتل كل ما في وسع البشر ان يفعلوه . وقد حل بدمشق ، كما حل بالبلاد الواقعة الى الشمال منها . ثم انسحب بسبب الخطر العثماني المائل في الشمال . ولم ينقذ البلاد من شره الا وفاته سنة ١٤٠٥/٨٠٨ . وقد حمل تيمور معه الى سمرقند خيرة علماء دمشق واهل الصناعة فيها ، الذين عملوا على تجميل عاصمته ونشر العلوم الاسلامية في قلب آسية . وكما خلف

١ - ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٤ ص ٦ - ٢٥ .

لنا ابن كثير وصف حملة قازان ، فقد ترك لنا ابن تغري بردي
وصفاً لحملة تيمور ، قال :

ثم رحل السلطان ببقية الامراء والعساكر من الريدانية
يريد جهة الشام لقتال تيمورلنك ، وسار حتى نزل بغزة في
يوم عشرين من الشهر

وأما الوالد فانه قال للسلطان وللأمراء : عندي رأي
اقوله ، وفيه مصلحة للمسلمين وللسلطان ، فقبل له : وما
هو ؟ فقال : الرأي ان السلطان لا يتحرك هو ولا عساكره
من مدينة غزة ، وأنا اتوجه الى دمشق وأحرّض اهلها على
القتال ، واحصنها وهي بلدة عظيمة لم تنكب من قديم
الزمان ، وبها ما يكفي اهلها من الميرة سنين ، وقد داخل
اهلها ايضاً من الخوف ما لا مزيد عليه ، فهم يقاتلون قتال
الموت — وتيمور لا يقدر على اخذها منّي بسرعة ، وهو في
عسكر كبير الى الغاية لا يطيق المكث بهم بمكان واحد مدة
طويلة

فاستصوب ذلك جميع الناس ، حتى تيمور عند ما بلغه
ذلك بعد اخذه دمشق ، وما بقي الا ان يرسم بذلك ،
تكلّم بعض جهّال الامراء مع بعض في السرّ ممن عنده
كين من الوالد من واقعة أيتّمس وتّنم ، وقال : تقتلوا

رفقته وتسلموه الشام ، والله ما قصدُ الا ان يتوجه الى دمشق ، ويتفق مع تيمور ويعود يقاتلنا ، حتى يأخذ منا ثار رفقته

ثم رحل جاليش السلطان من غزة في رابع عشرين شهر ربيع الآخر ، ثم رحل السلطان ببقية عسكره من غزة في سادس عشرينه ، وسار الجميع حتى وافوا دمشق .

وكان دخول السلطان دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الاولى ، وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهاال الى الله بنصرته ، وطلع السلطان الى قلعة دمشق وأقام بها الى يوم السبت ثامنه ، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره الى خيمه عند قبة يلبغا ظاهر دمشق ، وتهيأ للقاء تيمور هو بعساكره

فلما كان وقت الظهر من اليوم المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثلج في نحو الالف فارس ، فبرز اليهم مائة فارس من عسكر السلطان وصدموهم صدمة واحدة ، بددوا شملهم وكسروهم اقبح كسرة ، وقتلوا منهم جماعة كبيرة وعادوا

ثم في يوم السبت نزل تيمور بعساكره على قطننا ،

فلأت عساكره الارض كثرة ، وركب طائفة منهم لكشف
الخبر ، فوجدوا السلطان والامراء قد تهيئوا للقتال وصدفت
العساكر السلطانية ، فبرز اليهم التمريّة وصدموهم صدمة
هائلة ، وثبت كل من العسكرين ساعة ، فكانت بينهم وقعة
اتكسر فيها ميسرة السلطان ، وانهزم العسكر الغزّاويّ
وغيرهم الى ناحية حوران ، وجرح جماعة ، وُحمل تيمور
بنفسه حملة شديدة ليأخذ فيها دمشق ، فدفعته ميمنة
السلطان بأسنان الرماح حتى اعادوه الى موقفه .

ونزل كلّ من العسكرين بمسكره ، وبعث تيمور الى
السلطان في طلب الصلح وارسال أطلّمش احد اصحابه
اليه ، وأنه هو ايضاً يبعث من عنده من الامراء المقبوض
عليهم في وقعة حلب ، فاشار الوالد ودمرداش وقُطُنلو بقاء
الكسرّكي في قبول ذلك ، لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم ،
لا لضعف عسكرهم ، فلم يقبلوا وأبوا الا القتال .

ثم ارسل تيمور رسولا آخر في طلب الصلح ، وكرّر
القول ثانياً ، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صدق مقالته ،
وان ذلك على حقيقته ، فأبى الأمراء ذلك ، هذا والقتال
مستمر بين الفريقين في كلّ يوم .

فلما كان ثاني عشر جهادى الآخرة اختفى من امراء مصر
والمماليك السلطانية جماعة

ثم اشيح بدمشق ان الامراء الذين اختفوا توجهوا جميعاً
الى مصر ليلسطنوا الشيخ لاجين الجركسي احمد الاجناد
البرانية ، فعظم ذلك على مدبري المملكة لعدم رأيهم ،
وكان ذلك عندهم اهم من امر قيمور ، واتفقوا فيما بينهم على
اخذ السلطان الملك الناصر جريدة ، وعوده الى الديار
المصرية في الليل ، ولم يعلموا بذلك الا جماعة يسيرة ، ولم
يكن امر لاجين يستحق ذلك ، بل كانت تمراز نائب
الغيبة بمصر يكفي السلطان امرهم « وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا » .

فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي عشرين جمادى الاولى
ركب الامراء وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين
غفلة ، وساروا به من غير ان يعلم العسكر به من على عقبة
دُمُر يريدون الديار المصرية ، وتركوا المساكر والرعية
من المسلمين غَسَمًا بلا راع ، وجدوا في السير ليلاً ونهاراً
حتى وصلوا الى مدينة صفد ، فاستدعوا نائبها الامير
تَمْرُبُغا السَمَجكي واخذوه معهم ، وقلاحت بهم كثير من
ارباب الدولة وامرائها ، وسار الجميع حتى ادركوا الامراء
الذين ساروا الى مصر - عليهم من الله ما يستحقونه -
بمدينة غزة ، فكلتموهم فيما فعلوه ، فاعتذروا بعذر غير
مقبول في الدنيا والآخرة ، فندم عند ذلك الامراء على
الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم ، وقد تركوا دمشق

أكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا وأعرها .

وأما بقية امراء مصر واعيانها من القضاة وغيرهم لما علموا بخروج السلطان من دمشق خرجوا في الحال في ائره طوائف طوائف يريدون اللحاق بالسلطان ، فأخذ غالبهم العشير ، وسلبوهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

اخبرني غير واحد من اعيان المماليك الظاهرية قالوا : لما بلغنا خروج السلطان ركبنا في الحال ، غير انه لم يعقنا عن اللحاق به الا كثرة السلاح الملقى على الارض بالطريق مما رمتها المماليك السلطانية ليخف ذلك عن خيولهم ، فمن كان فرسه ناهضاً خرج ، والا لحقه اصحاب تيمور وأسروه ، فمن أسروه قاضي القضاة صدر الدين المناوي ومات في الاسر حسبا يأتي ذكره في الوفيات . وتتابع دخول المنقطعين من المماليك السلطانية وغيرهم الى القاهرة في اسوأ حال من المشي والعري والجوع ، فرسم السلطان لكل من المماليك السلطانية المذكورين بألف درهم وجامكتية شهرين .

وأما الامراء فانهم دخلوا الى مصر وليس مع كل أمير سوى مملوك او مملوكين ، وقد تركوا اموالهم وخيولهم وأطلايهم وسائر ما معهم بدمشق ، فانهم خرجوا من دمشق بغتة بغير مواعدة لما بلغهم توجه السلطان من دمشق ، واخذ كل واحد ينجو بنفسه .

وأما العساكر الذين خلفوا بدمشق من اهل دمشق
وغيرها ، فانه كان اجتمع بها خلائق كثيرة من الحلبيين
والحمويين والحصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور .

ولما اصبحوا يوم الجمعة وقد فقدوا السلطان والامراء
والنائب غلقوا ابواب دمشق ، وركبوا أسوار البلد ،
ونادوا بالجهاد ، فتهيأ اهل دمشق للقتال ، وزحف عليهم
تيمور بعساكره ، فقاتله الدمشقيون من اعلى السور اشد
قتال ، وردّوهم عن السور والخندق ، وأسروا منهم جماعة
من كان اقتحم باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عدّة
كبيرة ، وقتلوا منهم نحو الالف ، وأدخلوا رموسهم الى
المدينة . وصار امرهم في زيادة فأعيا تيمور أمرهم ، وعلم
ان الامر يطول عليه ، فأخذ في تخادعتهم ، وعمل الحيلة في
اخذ دمشق منهم .

وبينا اهل دمشق في اشدّ ما يكون من القتال والاجتهاد
في تحصين بلدهم ، قدم عليهم رجلان من اصحاب تيمور
من تحت السور وصاحا من بعد : « الامير يريد الصلح ،
فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الامير في ذلك »

ولما سمع اهل دمشق كلام اصحاب تيمور في الصلح وقع
اختيارهم في ارسال قاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن

محمد بن مفلح الحنبلي ، فأرخصي من سور دمشق الى الارض ،
وتوجه الى تيمور واجتمع به وعاد الى دمشق ، وقد خدعه
تيمور بتنميق كلامه ، وتلطّف معه في القول ، وترفق له
في الكلام ، وقال له : هذه بلدة الانبياء والصحابه ، وقد
أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن
اولادي ، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله
لرسولي ما أتيتها ، وقد صار سودون المذكور في قبضي وفي
أسري ، وقد كان الغرض في مجيئي الى هنا ، ولم يبق لي
الآن غرض الا العود ، ولكن لا بدّ من اخذ عاداتي من
التقدمة من الطقّزات .

وكانت هذه عادته اذا أخذ مدينة صلحاً يخرج اليه اهله
من كل نوع من انواع المأكول والمشروب والدواب والملابس
والتحف تسعة ، يسمّون ذلك طقّزات ، والطقّز باللغة
التركية : تسعة ، وهذه عادة ملوك التتار الى يومنا هذا .

فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذّل الناس عن القتال
ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيماً ، ويكف
اهل دمشق عن قتاله ، فقال معه طائفة من الناس ، وخالفه
طائفة اخرى وأبوا الا قتاله ، وباتوا ليلة السبت على ذلك
واصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مفلح على من
خالفه ، وعزم على اتمام الصلح ، ونادى في الناس : انه من

خالف ذلك قَتِيل ومُدر دمه ، فكفّ الناس عن القتال .

وفي الحال قدم رسول تيمور الى مدينة دمشق في طلب الطغزات المذكورة ، فبادر ابن مفلح ، واستدعى من القضاة والفقهاء والاعيان والتجار ، حَمَلَ ذلك كل احد بحسب حاله ، فشرعوا في ذلك حتى كمل ، وساروا به الى باب النصر ليخرجوا به الى تيمور ، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك ، ومدّهم بحريق المدينة عليهم ان فعلوا ذلك ، فلم يلتفتوا الى قوله ، وقالوا له : انت احكم على قلعتك ، ونحن نحكم على بلدنا . وتركوا باب النصر وتوجهوا ، واخرجوا الطغزات المذكورة من السور ، وتدلّى ابن مفلح من السور ايضاً ومعه كثير من اعيان دمشق وغيرهم وساروا الى مخيم تيمور ، وباثوا به ليلة الاحد ، وعادوا بكرة الاحد ، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدّة وظائف : ما بين قضاة القضاة ، والوزير ، ومستخرج الاموال ، ونحو ذلك ، معهم فرمان من تيمور لهم ، وهو ورقة فيها تسعة اسطر يتضمن امان اهل دمشق على انفسهم واهليهم خاصة . فقرأ فرمان المذكور على منبر جامع بني امية بدمشق ، وفتح من ابواب دمشق باب الصغير فقط ، وقدم امير من امراء تيمور ، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر اليها من عساكر تيمور . فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به ، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجه معه من اعيان دمشق الثناء

على تيمور وبث محاسنه وقضائله ، ودعا العامة لطاعته وموالاته ، وحشّتهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرّر لتيمور عليهم ، وهو ألف ألف دينار . وفرض ذلك على الناس كلهم ، فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم . فلما كمل المال حمله ابن مفلح الى تيمور ووضع بين يديه ، فلما عاينه غضب غضباً شديداً ، ولم يرض به ، وأمر ابن مفلح ومن معه ان يخرجوا عنه ، فأخرجوا من وجهه . ووكّل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان ، والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب ، الا ان سعر الذهب عندهم يختلف ، وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار ، فالتزموا بها . وعادوا الى البلد ، وفرضوها ثانياً على الناس كلها عن اجرة املاكهم ثلاثة اشهر ، وألزموا كل انسان من ذكر وأنثى حرّ وعبد بعشرة دراهم ، وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جرم ، فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، وعوقب كثير منهم بالضرب ، فقلت الاسعار ، وعزّ وجود الاقوات ، وبلغ المُدّ القمح - وهو اربعة أقداح - الى اربعين درهماً فضة ، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جمعة الا مرتين ، حتى دعي بها على منابر دمشق للسلطان محمود ولوليّ عهده ابن الامير تيمورلنك ، وكان السلطان محمود مع تيمور آله ، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم الا من يكون من ذرية الملوك . انتهى .

ثم قدم شاه ملك احدى امراء تيمور الى مدينة دمشق على
انه نائبها من قبل تيمور .

ثم بعد جمعيتين منعوا من اقامة الجمعة بدمشق لكثرة
غلبة اصحاب تيمور بدمشق ، كل ذلك ونائب القلعة بمنع
بقلعة دمشق ، وأعوان تيمور محاصره أشد حصار ، حتى
سلمها بعد تسعة وعشرين يوماً ، وقد رمى عليها بمدافع
ومكاحل لا تدخل تحت حصر ، يكفيك ان التمرية من
عظم ما أعياهم امر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من
خشب ، فعند قراضهم من بناؤها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا
من أعلاها من هو بالقلعة ، رمى اهل قلعة دمشق نقطاً
فأحرقوها عن آخرها ، فأنشأوا قلعة ثانية أعظم من الاولى
وظلموا عليها وقاتلوا اهل القلعة .

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة الا نفر يسير دون
الاربعين نفرأ ، وطال عليهم الامر ، ويلسوا من النجدة ،
وطلبوا الامان ، وسلموها بالامان

ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان ، أخذه
ابن مفلح وحمله الى تيمور ، فقال تيمور لابن مفلح واصحابه :
هذا المال بحسابنا انما هو يسوي ثلاثة آلاف ألف دينار ،
وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار ، وظهر لي انكم
عجزتم .

وكان تيمور لما اتفق أولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على اهل دمشق خاصة ، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والاموال يكون لتيمور ، فخرج اليه ابن مفلح بأموال اهل مصر جميعها ، فلما صارت كلها اليه وعلم انه استولى على اموال المصريين ألزمهم باخراج اموال الذين قرّوا من دمشق ، فسارعوا ايضاً الى حمل ذلك كله ، وتدافعوا عنده حتى خلع المال جميعه ، فلما كمل ذلك ألزمهم ان يخرجوا اليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها ، فتنبتعوا ذلك واخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء . فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته ، وألزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسكبتها . فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرقه على امرائه ، وقسم البلد بينهم ، فساروا اليها بماليهم وحواشيهم ، ونزل كل امير في قسمه وطلب من فيه ، وطالبهم بالاموال ، فحينئذ حلّ بأهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ، وأجري عليهم انواع العذاب من الضرب والعصر والاحراق بالنار ، والتعليق منكوساً ، وغمّ الانف بخرقة فيها تراب فاعم كلما تنفس دخل في انفه حتى تسكاد نفسه تزهق ، فكان الرجل اذا أشرف على الهلاك يُخلّى عنه حتى يستريح ، ثم تعاد عليه العقوبة انواعاً ، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت ، ويقول : ليتني أموت واستريح مما انا فيه . ومع هذا كله تؤخذ

نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير ، فيشاهد الرجل المذب امرأته أو بنته وهي توطأ ، وولده وهو يلاط به ، يصرخ هو من ألم العذاب ، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط ، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملامن الناس . ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلاً ، منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلويه حتى يغوص في رأسه ، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بمصاه حتى تنخلع الكتفان ، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويدثر في منخريه الرماد مسحوقاً ، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء ، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدق صاحبه على ذلك ، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت ، ويعاقب ميتاً بخافة أن يتأوت . ومنهم من كان يعلق المذب بإبهام يديه في سقف الدار يشعل النار تحته ، ويطول تعليقه ، قربما يسقط فيها ، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق ، ثم يعلقه ثانياً .

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً ، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانائة ، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .

فلما علمت امراء تيمور انه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا الى تيمور ، فسألهم : هل بقي لكم تعلق في دمشق ؟ فقالوا : لا ، فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق على اتباع الامراء فدخلوها يوم الاربعاء آخر رجب ، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة ، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها ، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن ، وساقوا الاولاد والرجال ، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال .

ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكانت يوم عاصف الريح ، فعمّ الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع الى السحاب ، وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها آخرها يوم الجمعة .

وكان تيمور - لعنه الله - سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق ، وزالت ابوابه وتفتّر رخامه ، ولم يبق غير جدره قائمة . وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية ، ولم يبق بها [دابة تدب] الا اطفال يتجاوز عددهم [آلاف] فيهم من مات ، وفيهم من سيموت من الجوع ،^١ .

١ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١٢ ص ٢٣٠ - ٢٤٨ .

وقد قاد المماليك حملات على معاقل الشيعة في سورية ومعاقل
الموارنة في لبنان ، كما انهم قاموا بحملات ضد ارمينية .

كانت منطقة الشرق الادنى (الوسط) في اواخر القرن
التاسع (الخامس عشر) والعاشر (السادس عشر) يتوزعها ثلاث
قوى - الفرس والأتراك والمماليك . وكان المماليك قد بلغت
دولتهم من الكبر عتياً ، وكان الفرس بعيدين عن الجناح الغربي
للإسلام الخصيب ، لكن الأتراك كان فيهم نشاط وقدره وكانت
لهم رغبة في القتال ، فلم يلبث سليم الأول ان قاد جيوشه ضد
السلطان الغوري ، الذي انهزم وقتل في معركة مرج دابق قرب
حلب سنة ١٥١٦/٩٢٢ ، واستولى الأتراك بذلك على سورية
ولبنان وفلسطين . وكان من سوء حظ طومان باي ، خليفة
الغوري ، ان انهزم هو الآخر قرب القاهرة سنة ١٥١٧/٩٢٣ ،
فسقطت مصر ايضاً في ايدي العثمانيين . وبذلك زالت دولة
المماليك .

كان المماليك قد تعرفوا الى استعمال البارود في العقد السابع
من القرن الثامن (الرابع عشر) ، وفي القرن التاسع (الخامس
عشر) كانوا يصنعون الاسلحة النارية على رواية ابن تغري بردي .
لكن سلاطين المماليك قصروا استعمال المدافع على الحصون ، ولم
يدخلوا بها المعارك . ويبدو ان استعمال المدافع لاغراض الحصار
والدفاع لم يقتض تبديلاً جذرياً في تنظيم الجند والجيش ، الذي

كان قوامه اصلاً الرقيق المدرب على استعمال السيف ثم
القدارة . ومثل هذا الجيش ما كان يتسع للمدافع واعمالها ، كما
ان الممالك لم يكونوا مهيشين ، لا نفسياً ولا اجتماعياً ، لتبديل
نظامهم العسكري قبحاً لحاجات الاسلحة الجديدة .

وقد ادرك سلاطين الممالك المتأخرون الخطر العثماني الرابض
في الشمال ، واخذوا يشجعون صنع المدافع . وقد خلف لنا ابن
تفري بردي وصفاً للمدافع ولتجربتها يرجع الى ايام خشقدم ،
جاء فيه قوله :

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره رسم السلطان بتصريح المدفع
السلطاني الذي سبكه للسلطان الاستاذ ابراهيم الحلبي بقلعة
الجبيل ، وصرّخ بين يدي السلطان في اواخر رمضان من
تحت القلعة الى جهة الجبل الاحمر غير مرّة ثم نقل الى ذيل
الجبل الاحمر بالقرب من قبة النصر تجاه ظهر زاوية الشيخ
علي كهنوش خارج القاهرة ، ووضع على صورة عالية
ووضع رجل المدفع نحو الجبل المذكور وفه الى جهة خانقاة
سرياقوس . وصرّخ هناك في يوم الخميس تاسع هذا الشهر
مرتين في المأ من الناس بحضرة جماعة من امراء الالوف
واعيان الدولة وقيس . ساقه سقوط حجر المدفع المذكور
فجاء اربعة آلاف ذراع وستائة ذراع وعشرين ذراعاً
بالذراع الجديد ، وكان في المرّة التي صرّخ فيها بين يدي

السلطان لم يقدر احد على قياسه لانه كان صرّخ نحو الجبل
ولم تعلم مسافة سقوطه . ولم احضر انا هذا القياس الثاني ولا
نقل اليّ من ثقة بل سمعته من اقواه الناس وفيه اختلاف من
زيادة ونقص . وقد سألت السلطان عن امره ومسافة سقوط
حجر المدفع فعرّفته انّني لم احرّره فسألني ان احرّره في
المرّة الثالثة فقلت له لا اعلم زنة المدفع ولا زنة حجره ولا
زنة باروده . فاملى علي جميع ذلك وغيره من لفظه حسبها
تقف عليه ان شاء الله في هذا المحل فتأهّبت لذلك . فلما
كان يوم الثلاثاء هذا وصرّخ المدفع ثالث مرّة من مكانه
المذكور فكان سقوط حجره الثاني تجاه مسجد التين من
المطرية وهو ابعد مسافة من الحجر الاول . وتوليت انا ومن
اثق به قياس هذه المسافة بالضبط والتحرير الزائد فكان
طول ذلك ٥٦٤٨ ذراعاً وكسراً بالذراع الجديد . . . وهذا
شيء من النواذر الغريبة التي لم نعهدها ولا سمعنا بمثله في
سالف الاعصار . فتعجّبت الناس من امر هذا المدفع غاية
العجب وكان لتصريحه يوم مشهود من كثرة الخلائق وبالله
لولا انّني شاهدت ذلك ما اثبتته في تاريخي لغرابة ما
شاهدته من عظيم امره وكل ذلك بسعادة السلطان خلد الله
ملكه . والذي اعتبرته من امر هذا المدفع المذكور من املاء
السلطان ومباشرتي بنفسي انّ طوله ١٥ شبراً وبالذراع
٥٣/٤ ذراع ووسع فوهته ٣٣/٤ ذراع دوراً وسمكه نحو
من ثلث ذراع . وهو قطعة واحدة مضلع مشرف حلز

الشكل . وأما زنته فمائة وسبعون قنطاراً بالمصري^١، وزنة
حجره المرمى به أربعة قناطير بالمصري^٢ وزنة باروده سبعة
وثلاثون رطلاً بالمصري^٣ أيضاً^٤ .

لقد واجه الغوري الخطر العثماني بنفسه، وأمر بزيادة المصنوع
من المدافع، لكنه قصرها على حاجات الدفاع والحصار. ورغبة
منه في أن يساوي بين جنوده والجنود العثمانيين أحصى الفروسية،
بحيث يتاح لجنوده التدريب الجيد . وأدرك أن الجند العثماني كان
يعتمد الأسلحة النارية، فشد أزر جنوده بإدخال البنادق في
تسليحهم . وقد كان هؤلاء جنوداً من مستوى اجتماعي دون
مستوى الجندي العادي، وكثيرون منهم كانوا عبيداً . لكن
الذي لم يدركه الغوري، أو لم يكن بإمكانه أن يدركه، هو أن
الجندي العثماني كانت تحرسه المدافع في الميدان والمركة وتحمي
تقدمه . لذلك لما طبقت جيوش سليم الأول في مرج دابق
(قرب حلب) على جنود الغوري، لم يكن هؤلاء كفؤاً لآلات
النار، مع أنهم قاتلوا بشجاعة وبأس شديدين . وقد كانت
انكسار المماليك هناك، كما كان انكسارهم قرب القاهرة، يرجع،
إلى درجة كبيرة، إلى أنهم لم ينتبهوا إلى معنى التغيير الكبير
الذي نشأ عن استعمال المدفع في المركة بالنسبة إلى الجند . وقد

١ - ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور
(كاليفورنيا ١٩٣٢) ، ج ٣ ص ٤٧٤ - ٤٧٦ .

كان الانتصار العثماني ، بالإضافة الى العوامل الاخرى ، انتصاراً
للاساليب والاسلحة الجديدة .

كان المماليك شديدي العناية بالعمارة ، كما تشهد بذلك آثار
عمارتهم التي تزين القاهرة وغيرها من المدن . وكانوا يعنون
بالمدارس وقد شجعوا التعليم اكثر مما كان منتظراً من جماعة لها
مثل تجربتهم ومهنتهم . وقد كانت المنطقة التي وقعت تحت
نفوذهم ، كما كانت لقرون خلت ، ملتقى التجارة ، وبذلك
وفرت لاطماع المماليك حصّة كبيرة من القوائد التجارية . الا ان
المماليك لم يتيحوا لفلاحى سورية وفلسطين الوقت ولا التشجيع
اللازمين لتطوير نشاطهم الزراعي الى غايته . ومن ثم فانه لما
تحولت الطرق التجارية الى جنوب افريقية في القرن التاسع
(الخامس عشر) ، لم يكن للمماليك ما يمكن ان يعتمدوا عليه
لسد حاجاتهم ، وبذلك نال السكان الكثير من المظالم .

يضاف الى ذلك ان المنطقة اصابها وباء في سلطنة برسباي
(١٤٢٢/٨٢٥ - ١٤٣٨/٨٤٢) . ومع انه لم يبلغ في الشدة ما
بلغه الوباء الاسود الذي عرفته اوروبة ، فقد بلغ من سوء حدّ
انه اثر في التكوين الاجتماعي والاقتصادي في البلاد المعنية . وقد
خلف لنا ابن تغري بردي ، وهو في مقدمة اخباري الفترة ،
وصفاً حياً للوباء اذ قال انه بدأ في حلب ثم انتشر جنوباً عبر
بلاد الشام كلها . وقد كانت نكبة بلاد صفد والقدس والكرك

ونابلس كبيرة جداً ، وحتى العربان في الصحراء اصابوا به .
ولم تنتج منه سوى امرأة واحدة عجوز في جنين ، وذلك لانها
هربت . ومثل ذلك وقع في الرملة وغيرها من الاماكن ...
وقد توفي خمسمائة شخص في يوم واحد في حلب ، وخسرت
دمشق ١٢٠٠ نسمة في رجب من عام ٨٤٩ / تشرين الاول
عام ١٤٤٥ .

كانت المنطقة التي تشمل اليوم سورية ولبنان وفلسطين
والاردن في ايام المعاليك ، مقسمة الى ست ولايات تسمى
واحدتها مملكة . وكانت مملكة دمشق اوسعها اذ شملت اواسط
سورية والجزء الاكبر من فلسطين والمنطقة الممتدة شرقي الاردن .
وحتى بعض المناطق اللبنانية كانت تتبع نائب السلطنة فيها .
وكانت الادارة مركزية حتى ان الامور الطفيفة كان لابد من
الرجوع بشأنها الى دمشق .

ونحن اذا نظرنا الى المسألة من الناحية العامة وجدنا انه كان
ثمة ثلاثة انواع من اصحاب الوظائف المسؤولين عن شؤون
الولاية باشراف نائب السلطنة . وكان لكل من هذه الفئات
واجبات تقوم بها ومنها اشتقت تسميتها . وقد كان اصحاب
السيوف يحتسبون أعلى الرتب ، ومنهم امراء الجند واصحاب
الشرطة ونظار الاعشار واصحاب البريد ، وجميعهم ، دون
استثناء ، كانوا من الارستقراطية العسكرية المملوكية . وكان

يليهام اصحاب الوظائف الديوانية وكانت وظائفهم مدنية ، اذ كان عليهم ان يقوموا بحفظ القيود والسجلات لاصحاب السيوف المتقدم ذكرهم . وقد كان بعض هؤلاء من المماليك ، لكن اهل البلاد كان يسمح لهم بتولي بعض هذه الوظائف . اما الفئة الثالثة ، ولم تكن اقل الفئات اهمية ، فهي اصحاب الوظائف الدينية ، وكان يوكل اليهم اقامة العدل حسب الشريعة الغراء والنظر في الاسواق والاشراف على التداريس والزوايا والمساجد والبيارات . وقد كان هؤلاء يرجعون الى نائب السلطنة ، باستثناء ناظر القلعة وقاضي القضاة . ذلك ان السلطان لم يكن يشق بنوابه ، فكان لقلعة دمشق (وحلب ايضاً) حامية خاصة يعين السلطان اميرها من القاهرة ويكون مسؤولاً تجاهه .

ان النظر في القضاء كان دوماً موضع رعاية خاصة في الاسلام ، وكان يغلب على اصحابه ابتعادهم عن الاهواء التي تعتور الادارة المحلية ، بحيث ان رئيس الدولة كان يحتفظ لنفسه بحق تعيين كبار رجال القضاء . وقد اتبع المماليك هذه السنة . وليس يعني هذا ان القضاة جميعهم كانوا في ايام المماليك بمنأى عن المؤثرات المحلية ، لكن هذا التعيين كان عوناً ادبياً لهم . وما اكثر ما وقع الخلاف بين القضاة والولاة ، ولم نجح الولاة في حمل السلطان على عزل القاضي ، الا ان القضاء كان على الاقل يتمتع بهذه الحصانة نظرياً .

وكان الجيش يتألف من نوعين : اهل الحلقة ، وهم الجنود النظامي ، وحرس الوالي الخاص . يضاف الى هذين النوعين المتطوعة والرديف الذين يدعون في ايام الحاجة والشدة . وقد قدر عدد الجنود الذي كان باستطاعة المالك جمع بين ٤٥,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠ ، وكان يتألف من جميع العناصر التي تزخر بها المنطقة .

كانت موارد المملكة ، شأنها في ذلك شأن الامبراطورية المملوكية ، يدخل في عدادها الخراج والزكاة والجزية والعشور واجور املاك الدولة . وكانت السلطان كثيراً ما يلزم الناس بضرائب شاذة تبعاً لرغبته مثل المصادرة التي كان حتى نواب السلطنة يمكنهم القيام بها وبالمطالب التي قد تهبط على الناس فجأة . اما المصاريف فكانت تشمل نفقات الادارة والجيش والبريد والاهتمام بتنظيف الانهار والترع وبناء الجسور والاسوار .

ويعود سبب استمرار الحياة في دمشق الى وفرة المياه فيها ، لكن الاحداث السياسية هي التي حددت شكل المدينة وحالتها . فقد ساد سورية في القرن الخامس (الحادي عشر) اضطراب اشرفت فيه البلاد على الفوضى . فانتشرت الحروب الاهلية والنزاعات الاقطاعية وغزوات البدو بحيث لجأ السكان الى داخل المدن بحثاً عن الامان والطمانينة . وترتب على ذلك ان الضواحي التي كانت معروفة قبلاً اهملها الدمشقيون . وكان الحاكم

السلجوقي يعنى بالاسوار وكان الجامع يلتقى الناس المفضل ، وكانت الاسواق تفي بحاجة الناس غذاء ومنتدى ، وما عدا هذا « فقد بدت المدينة وكأنها مجموعة حارات مستقلة ، لكل حياتها الخاصة بها ، منفصلة عن جارتها . وكانت كل من هذه الحارات كأنها بلدة مصغرة بمسجدها وسقاية الماء فيها وحماماتها وسوقها التي كانت تباع فيها حاجاتها ... وكانت بيوت الحارة الواحدة يوصل اليها بطريق واحد له باب يقفل ليلا » .

وما اكثر ما اضطر اهل دمشق الى ان ينظموا انفسهم للدفاع عن مدينتهم . وكان مثل هذا الامر يتخذ شكل تجمعات حرفية (مهنية) . فقد كان لكل حارة احداثها وعلى رأسهم شيخ يشرف على تنظيمهم . فاذا تعرضت مصلحة المدينة للخطر تقدم الاحداث الى العمل مجتمعين . ومن ثم فقد كانت هذه التجمعات الحرفية تؤدي غرضين : فمن الجهة الواحدة كانت تحمي اعضاؤها من المنافسة مهنياً وتحول دون ظلم الحكام لهم . ومن الجهة الاخرى كانت الجماعات هذه تنظم الاحداث حرساً للدفاع عن المدينة . وقد حدث في القرن الخامس (الحادي عشر) ان تم لبني السيوفي رئاسة متوارثة بالاضافة الى مشيخة الاحداث . وفي هذه الحالة كان هذا الشخص « يمثل مصالح المدينة ويدفع عنها الخطر الخارجي ويتوسط بين الناس والوالي ، الذي كثيراً ما كان يلجأ الى القلعة ، وكان في

وساطته تدعمه قوة الاحداث . ولم تعد دمشق في هذه الفترة ذات شخصية متأسكة او عضواً حياً نشيطاً . لقد أصبحت مجموعة من الافراد ذوي المصالح المتعارضة ، بحيث يعنى كل بما ينفعه في دائرته الخاصة به ، مسخراً الظروف جميعها لاغراضه الذاتية ، بقطع النظر عن حاجات جيرانه . لكن دمشق التي كانت ممزقة اجتماعياً وسياسياً كانت نشيطة في اقتصادها وتنعيم بشيء من الازدهار .

كان ظهور الزنكيين والايبيين في القرن السادس (الثاني عشر) مؤذناً بعودة القانون والنظام الى البلاد ، كما ان حكام سورية ، بسبب ضغط الصليبيين عليهم ، اخذوا الامور بعين الجد . وثالت دمشق ، وهي العاصمة ، عناية كبيرة . فحصنت اسوارها وقلعتها جيداً ، ووسعت قلعتها بحيث انها لم تعد المعقل الاخير للحامية المحاصرة فحسب ، بل أصبحت تتسع لسكن السلطان ومخازن الارزاق والذخيرة ودار الضرب والسجن . وكان لها جامعها وحماماتها وأسواقها . وقد قال ابن جبير ، الرحالة المغربي الذي زارها في ايام صلاح الدين ، في وصف القلعة :

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منحازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج ، من ابواب البلد . وبها جامع السلطان يجمع فيه ^١ .

١ - رحلة ابن جبير (تحقيق الدكتور حسين نصار) ص ٢٧٧ .

وقد ادت اعادة القانون والنظام في القرن السادس (الثاني عشر) الى تحسين الحالة الاقتصادية . واقادت دمشق من ذلك تجارة وصناعة . على ان المدينة لم تتبدل احوالها الداخلية كثيراً ، فقد ظلت طرقها ضيقة مزدحمة ، وظلت الحارات اساس الحياة المهنية والحياة الاجتماعية الدينية . الا ان اصحاب المهن وضعوا تحت مراقبة دقيقة . فقد كان هؤلاء ينظر اليهم على انهم سبيل يلجأ اليها الشعب المقلوب على امره للتمييز عن ظلاماته عن طريق التشيع ، الامر الذي كان يعتبر خطراً على الدولة السنية . ولعل اولى الامر كانوا مصيبين في نظرهم هذه الى اصحاب المهن .

ولم يعد السكان يشعرون بالحاجة الى ضرورة البقاء داخل اسوار دمشق . ومن ثم فقد طرأ على الضواحي تطور جذري ، وهو تطور لم يكن يحاربه الا التطور الاقتصادي في المدينة . وقد استمرت هاتان الظاهرتان في حياة دمشق طوال القرون السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) والتاسع (الخامس عشر) .

وكان المماليك ادق رقابة على الولايات واشد في فرض القانون والنظام . وقد استمرت دمشق تنمو وتتطور في ظل النظام الجديد في الاتجاه الذي اوجزنا وصفه . وقد كانت المماليك يعتبرونها المدينة الاولى بعد القاهرة ومركزاً حربياً هاماً . وقد زادت الضواحي ، وخاصة لارتباطها باسباب الجيش . فمن

ذلك ميدان تحت القلعة الذي كان فيه سوق الخيل والسروج وما الى ذلك من اشغال الجلود . وكان للدباغين ثمة مكان ايضاً . وعلى مقربة من هذا الميدان ، والى الشمال منه ، قام سوق ساروجا الذي نما نمواً عجيباً . اما من حيث مناطق السكن فقد كانت اتساع الصالحية في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر) خير مثل على التطور والتقدم . لقد كانت بلدة خارج الاسوار . وللدمشقيين غرام قديم بالتنزه في ارباض مدينتهم . وقد اقيمت ، في الفترة التي نعرض لها ، اماكن ثابتة للتنزه والسرور مثل الغوطة والربوة ووادي البنفسج وبين النهرين والبلبيكي ، وهي اوسعها ذكراً .

ومن اهم صفات المدينة في الفترة المذكورة كثرة المدارس . ولا يعني هذا ان دمشق لم تكن من قبل دار علم ، بل ان المدرسة كانت موضع اهتمام خاص ايام آل زنكي والايوبيين والمماليك . فقد رافق ظهور هذه الدول احياء للسنة ونفوذها ، واختفاء للشيعية ، التي كانت قد انتشرت انتشاراً لا بأس به في سورية . وقد كانت المدرسة ، على نحو ما نظمها السلاجقة ، على العموم تحت اشراف الدولة . ثم اصبحت ، في ايام الايوبيين ، اداة لمكافحة الشيعة ودعم الرأي السني الرسمي . وقد بنى الولاة المدارس وشجعوا غيرهم على بنائها . وكانت المدارس دوماً غنية في ما يجبس عليها من اوقاف .

٢ دمشق صلاح الدين وابن حُبَيْر

وصل ابن جبير ، الرحالة المغربي المشهور ، الى دمشق ضحى
(الرابع والعشرين لربيع الاول سنة ٥٨٠) الخامس من تموز
(يوليو) سنة ١١٨٤ ، فلما اقترب منها من جهة الشمال وقسع
نظره على منظر خلّاب للمدينة البديعة قدور بها الحدائق الواسعة
ذات اللون الاخضر الداكن وسواقيها تلمع في اشعة الشمس . فلما
استقرت به الحال وصف الانطباع الحي الذي تركه المنظر في
نفسه ، فقال في ذلك ، بأسلوبه البليغ :

جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤفق المشرق ، وهي
خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي
اجتليناها ، قد تحلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت في حلل
سندسية من البساتين ، وحلّت من موضوع الحسن بالمكان
المكين ، وتزينت في منصّتها اجمل تزيين ، وتشرقت بأن
آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليها منها الى ربوة ذات
قرار ومعين ، ظلّ ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مذاربه
انسياب الارقم بكل سبيل ، ورياض يحبي النفوس نسيما
العليل ، تتبرّج لناظرها بمجّلى صقيل ، وتناديهم : هلموا
الى معرّس للحسن ومقيل ، قد سئمت ارضها كثرة المساء

حتى اشتاقت الى الظمأ ، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب :
« اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » ، قد احدثت
البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفها اكتناف الكيامة
للزهر ، وامتدت بشرقيتها غوطتها الخضراء امتداد البصر ،
فكل موضع لحظته يجهاها الاربع نصرته اليانعة قيد النظر ،
ولله صدق القائلين عنها : « ان كانت الجنة في الارض قدمشق
لا شك فيها » وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها
وتحاذيها ، ^١ .

لم يكن ابن جبير رحالة فحسب ، بل كان عالماً مسلماً وكان ،
قبل هبوطه دمشق ، قد زار مصر والعراق وكان قد ادى فريضة
الحج . كان يتنقل مفتوح العينين والاذنين ، ويحرص على تلقف
اخبار العلم والمدارس والمساجد والزوايا وغير ذلك من نواحي
الحياة في الاماكن التي زارها . ونحن اذا رافقنا ابن جبير في
زيارته لدمشق ، التي قضى فيها شهرين وبعض الشهر ، فانتا نحصل
على صورة المدينة على ما كانت عليه ايام صلاح الدين الايوبي ،
قبل ان يتولى المماليك الامور ويطبقوا القانون والنظام بدقة ،
فيشجعوا السكان على السكنى خارج الاسوار . فهو يقول لنا ان
المدينة لم تكن واسعة الرقعة :

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

والبلد ليس بمفرط الكبر ، وهو مائل للطول ،
وسككه ضيقة مظلمة ، وبناءؤه طين وقصب ، طبقات
بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله
ثلاث طبقات ، فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث
مدن ، لانه اكثر بلاد الدنيا خلقاً ، وحسنه كله خارج لا
داخل^١ .

واسواق هذه البلدة من احفل اسواق البلاد ، واحسنها
انتظاماً ، وابدعها وضعاً ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي
مرقنعات كأنها الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها
ابواب القصور . وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها
الجديدة . ولها ايضاً سوق ، يعرف بالسوق الكبير ، يتصل
من باب الجابية الى باب شرقي^٢ .

وقد لفتت المدينة ايضاً نظر بنيامين الطيطلي ، الذي زارها
سنة ١١٦٣/٥٥٨ وكتب عنها :

ان المدينة كبيرة وجميلة يدور بها سور ويحيط بها
ريف جميل يمتد الى نحو خمسة عشر ميلاً في حدائق وبساتين

١ - رحلة ابن جبیر، ص ٢٧١ .

٢ - المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ .

من اغنى ما عرف ، بحيث انه لا مثيل لها على سطح الارض
لا من حيث عددها ولا من حيث جمالها . هنا يجري نهرا
ابانا وفرفر اللذان ينبعان من الجبل التي ترتكز المدينة عليه ،
وابانا يخترق دمشق ، وثمة قساطل تحمل ماءه الى الشوارع
والاسواق . وفيها يجتمع التجار من جميع اقطار الدنيا
حيث يتبادلون السلع على مقياس واسع . وفرفر يمر بالبساتين
والحدائق في الضواحي ويرويها ^١ .

ولما كان ابن جبير مسلماً ورعاً تقياً ، فقد ملأ الجامع الاموي
قلبه حبوراً . وقد قضى فيه ساعات وتسلق قبه وعدد جميع
الاماكن والمواقع المباركة فيه . وقد كان الجامع دوماً أروع
ممالك المدينة ، لذلك فانه حري بنا ان نرافق ابن جبير في
زيارته :

هو من اشهر جوامع الاسلام حسناً ، واتقان بناء ،
وغرابة صنعة ، واحتفال تنسيق وتزيين . وشهرته المتعارفة
في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه . ومن عجيب شأنه
انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ، ولا تلم به الطير
المعروفة بالخطاف . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه

١ - انظر بليامين في Early Travels in Palestine. Ed. Th. Wright (London 1848) p. 90.

الله ، ووجهه الى ملك الروم بالقسطنطينية بأمره بأشخاص
اثنى عشر ألفاً من الصنائع من بلاده ، وتقدم اليه بالوعيد
في ذلك ان توقّف عنه . فامتثل أمره مذعناً ، بعد مراسلة
جرت بينها في ذلك ، مما هو مذكور في كتب التواريخ .
فشرع في بنائه ، وبلغت الغايات في التأتق فيه ، وأنزلت
جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالقسيفساء ،
وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة ، قد مُثلت
اشجاراً ، وفُسرّعت اغصاناً منظومة بالفصوص ، يبدائع من
الصنعة الانيقة المعجزة وصف كل واصف ، فجاء يغشّي
العيون وميضاً وبصيصاً

ذراع في الطول من الشرق الى الغرب متتا خطوة ، وهما
ثلاث مئة ذراع . وذراع في السعة من القبلة الى الجوف مئة
خطوة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي متتا ذراع . فيكون
تكسيره من المراجع الغربية اربعة وعشرين مرجعاً . وهو
تكسير مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، غير ان
الطول في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من القبلة
الى الشمال . وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة ، مستطيلة من
الشرق الى الغرب ، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة ،
والخطوة ذراع ونصف ، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً ،
منها اربع وخمسون سارية ، وثمان ارجل حصية تتخللها ،
واثنتان مرخمة ملصقة معها في الجدار الذي يلي الصحن ،

واربع ارجل مرخنة ابداع ترخيم ، مرصعة بفصوص من
الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت بحاريب
واشكالاً غريبة ، قائمة في البلاط الارسط ، تقل قبة الرصاص
مع القبة التي تلي المحراب ، سعة كل رجل منها ستة عشر
شبراً ، وطولها عشرون شبراً ، وبين كل رجل ورجل في
الطول سبع عشرة خطوة ، وفي العرض ثلاث عشرة خطوة ،
فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً . ويستدير
بالصحن بلاط من ثلاث جهاته : الشرقية ، والغربية ،
والشالية ، سعة عشر خطاً ، وعدد قوائمه سبع واربعون :
منها اربع عشر من الجص ، وسائرها سوار . فيكون سعة
الصحن - حاشا المسقف القبلي والشالي - مئة ذراع .
وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص .

وأعظم ما في هذا الجامع المبارك ، قبة الرصاص
المتصلة بالمحراب وسطه ، سامية في الهواء ، عظيمة
الاستدارة ، قد استقل بها ميكل عظيم ، هو غارب لها ،
يتصل من المحراب الى الصحن ، وتحت ثلاث قباب : قبة
تتصل بالجدار الذي الى الصحن ، وقبة تتصل بالمحراب ،
وقبة تحت قبة الرصاص بينهما . والقبة الرصاصية قد أغصت
الهواء وسطه ، فاذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ، ومرأى
هائلاً ، يشبهه الناس بنسر طائر ، كأن القبة رأسه ،
والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين ، ونصف

الثاني عن شمال ، جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة ، فهم يعرفون الموضع من الجامع بالنسر لهذا التشبيه الواقع عليه . ومن اي جهة استقبلت البلد ، ترى القبعة في الهواء منيفة على كل علو ، كأنها معلقة من الجو .

والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد ، وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون : منها في القبعة التي تحت قبة الرصاص عشر ، وفي القبعة المتصلة بالحرايب ، مع ما يليها من الجدار ، اربع عشرة شمسية ، وفي طول الجدار عن يمين الحرايب ويساره اربع واربعون ، وفي القبعة المتصلة بجدار الصحن ست ، وفي ظهر الجدار الى الصحن سبع واربعون شمسية .

وفي الجامع المكرم ثلاث مقصورات : مقصورة الصحابة رضي الله عنهم ، وهي اول مقصورة وضعت في الاسلام ، وضعها معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنها ، وبازاء محرابها عن يمين مستقبل القبلة باب حديد ، كان يدخل معاوية رضي الله عنه الى المقصورة منه الى المحراب . وبازاء محرابها لجهة اليمين مصلّى ابي الدرداء رضي الله عنه ، وخلفها كانت دار معاوية رضي الله عنه . وهي اليوم سماء عظيم للصفارين ، يتصل بطول جدار الجامع القبلي ، ولا

سماط احسن منظراً منه ، ولا اكبر طولاً وعرضاً . وخلف هذا السماط على مقربة منه دار الخليل برسمه ، وهي اليوم مسكونة ، وفيها مواضع للكتّادين . وطول المقصورة الصحابية المذكورة اربعة واربعون شهراً ، وعرضها نصف الطول . ويليهما لجهة الغرب ، في وسط الجامع ، المقصورة التي احدثت عند اضافة النصف المتخذ كنيسة الي الجامع ، حسبما تقدم ذكره . وفيها منبر الخطبة ، ومحراب الصلاة . وكانت مقصورة الصحابة اولاً في نصف الحظ الاسلامي من الكنيسة ، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثه . فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً ، صارت مقصورة الصحابة طرفاً في الجانب الشرقي ، وأحدثت المقصورة الاخرى وسطاً ، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال . وهذه المقصورة المحدثه اكبر من الصحابية . وبالجانب الغربي بازاء الجدار مقصورة اخرى ، هي برسم الحنفية ، يجتمعون فيها للتدريس ، وبها يصلّون . وبازائها زاوية محدقة بالاعواد المشرجبة ، كأنها مقصورة صغيرة . وبالجانب الشرقي زاوية اخرى على هذه الصفة ، هي كالمقصورة ، كانت وضعها للصلاة فيها احد امراء الدولة التركية ، وهي لاصقة بالجدار الشرقي . وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب ، يتخذها الطلبة للنسخ ، والدرس ، والافتراء عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق الطلبة .

وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية ،
عشرون باباً متصلة بطول الجدار ، قد علتها قسي جصية
مخرمة كلها على هيئة الشمسيات ، فتبصر العين من اتصالها
اجمل منظر وأحسنه . والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط
بالبلاطات من ثلاث جهات ، على أعمدة . وعلى تلك الأعمدة
ابواب مقوَّسة ، تقلبها أعمدة صغار ، تطفيف بالصحن كله .
ومنظر هذا الصحن من اجمل المناظر واحسنها ، وفيه
يجتمع اهل البلد ، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية
تراهم فيه ذاهبين وراجعين ، من شرق الى غرب ، من باب
جيرون الى باب البريد : فمنهم من يتحدث مع صاحبه ،
ومنهم من يقرأ ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع ،
الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة ، ثم ينصرفون . ولبعضهم
بالقداءة مثل ذلك . واكثر الاحتفال انما هو بالعشي . فيخيل
لمبصر ذلك انها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم ، لما
يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل
يوم . واهل البطالة من الناس يسمونهم الحرّاثين .

والجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي ،
وهي كالبرج المشيد ، تحتوي على مساكن متسعة ، وزوايا
فسيحة ، راجعة كلها الى اغلاق ، يسكنها اقوام من الغرباء
اهل الخير ، والبيت الاعلى منها كان معتكف ابي حامد
الغزالي رحمه الله ، ويسكنه اليوم الفقيه الزاهد ابو عبدالله

ابن سعيد ، من اهل قلعة « يحصب » المنسوبة لهم ، وهو قريب لبني سعيد المشتهرين بالدنيا وخدمتها ، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة ، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفتين

وكان هذا الجامع المبارك ، ظاهراً وباطناً ، منزلاً كله بالفصوص المذهبة ، مزخرفاً بأبداع زخارف البناء المعجز الصنعة . فادركه الحريق مرتين ، فتهدم وجدّد ، وذهب اكثر رخامه ، فاستحال رونقه ، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه من أعجب الحاريب الاسلامية حسناً ، وغرابة صنعة ، يتسعد ذهباً كله . وقد قامت في وسطه محاريب صفصار متصلة يحداره ، تحفها سويريات مقتولات قتل الاسورة ، كأنها مخروطة ، لم يرَ شيء اجل منها ، وبعضها حمر كأنها مرجان . فشأن قبلة هذا الجامع المبارك — مع ما يتصل بها من قبابه الثلاث ، واشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه ، واتصال شعاع الشمس بها ، وانعكاسه الى كل لون منها ، حتى ترتقي الابصار منه أشعة ملونة

وفي هذا الجامع المبارك يجتمع عظيم ، كل يوم اثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائماً ، ومثله اثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكثرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر الى

الحائقة ، ويحضر في هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يجيد حفظ القرآن . وللمجتمعين على ذلك اجراء كل يوم ، يعيش منه أزيد من خمس مئة انسان . وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم . فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساء . وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع . والمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم اجراء معلوم . ومراقق هذا الجامع المكرم للغرباء ، واهل الطلب ، كثيرة واسعة . وأغرب ما يحدث به ان سارية من سواريه ، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة ، لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس . ابصرنا بها فقيهاً من اهل اشيلية ، يعرف بالمرادي . وعند فراغ المجتمع السبعى من القراءة صباحاً ، يستند كل انسان منهم الى سارية ، ويجلس امامه صبي يلقيه القرآن . واللصبيان ايضاً على قراءتهم جراءة معلومة . فأهل الجدة من آباؤهم ينزهون أبناءهم عن اخذها ، وسائرهم يأخذها . وهذا من المفاخر الاسلامية ١ .

ولم يكن افتتاح ابن جبير بالمدارس والمستشفيات والزوايا اقل من افتتاحه بالجامع . فقد كانت تلك بيوت العلم في الاسلام ورمز التماسك الاجتماعي واعمال البر والاحسان . وحاسته لها تبدو واضحة في وصفه اياها :

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٩ - ٢٦٠ .

وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان قديم
وحديث ، والحديث احفلها واكبرهما ، وجرايته في اليوم
نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قسّومة بأيديهم الازمة المحتوية
على اسماء المرضى ، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في
الادوية والاغذية وغير ذلك . والاطباء يبكرون اليه في كل
يوم ، ويتفقّدون المرضى ، ويأمرون باعداد ما يصلحهم من
الادوية والاغذية ، حسبما يليق بكل انسا منهن .
والمارستان الآخر على هذا الرسم ، لكن الاحتفال في الجديد
اكثر . وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرم . وللمجانين
المعتقلين ايضاً ضرب من العلاج ، وهم في سلاسل موثقون ،
نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام ،
والمدارس كذلك . ومن احسن مدارس الدنيا منظراً
مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره فوره الله . وهي
قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان
وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى ان
يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتجار الابصار في حسن
ذلك المنظر ، فكل من يبصره يحدد الدعاء لنور الدين رحمه
الله . واما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي
برسم الصوفية . وهي قصور مزخرفة ، يطرد في جميعها الماء
على احسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعاش ، واسكنهم في قصور تذكّرهم قصور الجنان . فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة ، وسنة في المعاشرة عجيبة ، وسيوتهم في التزام رقب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقاً . وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً ١ .

انه من ثافل القول ان تذكر ان ابن جبير لم يقصر نشاطه او وصفه على الجزء المسور من المدينة ، فقد تنقل وتمتع وزار الاماكن المعظمة تبركاً بالزيارة . فدمشق كانت قد اصبحت في ايامه جزءاً لا يتجزأ من الادب الديني الاسلامي . فالامويون (٦٦١/٤١ - ٧٥٠/١٣٢) وخلفاؤهم من بعدهم اسبقوا على دمشق منزلة الكرامة - ففيها قتل قابيل اخاه هابيل ، وفيها ولد ابراهيم ، وفيها دفن رأس القديس يوحنا المعمدان وفيها ، وان جاءت آخراً فهي ليست الاقل اهمية ، وجدت السيدة العذراء والمسيح ملاذاً . يضاف الى ذلك ان مدافن المدينة كانت

١ - رحلة ابن جبير ، ٢٧٢ - ٢٧٣ .

تحتوي على قبور عدد من الصحابة . ولا شك ان بعضهم مدفون هناك ، لكن دمشق اصابها من التشريف اكثر من حصتها . وقد زار ابن جبير هذه المشاهد جميعها وامتلاً قلبه حبوراً لذلك . وتردد ايضاً على مواطن الحسن في ضواحي دمشق . وقد مر بنا وصفه للقلعة ، فلنصحبه الآن في زيارة للمنطقة المصاحبة لها ، وهي التي كانت تعرف في القرن السابع (الثالث عشر) باسم ميدان تحت القلعة . قال ابن جبير :

ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان ، منعازة في الجهة الغربية من البلد ، وهي بازاء باب الفرج من ابواب البلد . وبها جامع السلطان يجمع فيه . وعلى مقربة منها ، خارج البلد في جهة الغرب ، ميدانان كأنهما مبسوطان خزاناً لشدة خضرتهما ، وعليهما حلق ، والنهر بينهما ، وغضفة عظيمة من الحور متصلة بهما . وهما من ابداع المناظر ، يخرج السلطان اليهما ، ويلعب فيها بالصوالجة ، ويسابق بين الخيل فيهما ، ولا مجال للعين كمجالها فيهما . وفي كل ليلة يخرج ابناء السلطان اليهما للرماية ، والمسابقة ، واللعب بالصوالجة .

وقد رقي ابن جبير جبل قاسيون القابع غربي دمشق ، حيث اشرف منه على المدينة وارياضها . ووصفه يضع امامنا صورة لدمشق كما كانت في القرن السادس (الثاني عشر) ، كما يبين لنا ما كان قد لصق بها من القصص الى ذلك الوقت ، فقد قال :

ويجبل قاسيون ايضاً لجهة الغرب ، على مقدار ميل
او أزيد من المولد المبارك ، مغارة تعرف بمغارة الدم ، لان
فوقها في الجبل دم هابيل قتيل اخيه قابيل ، ابني آدم صلى
الله عليه ، يتصل من نحو نصف الجبل الى المغارة . وقد
ابقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة ، تحك
فتستحيل ، وهي كالطريق في الجبل ، وتقطع عند المغارة ،
وليس يوجد في النصف الاعلى من المغارة آثار تشبهها فكان
يقال : انها لون حجارة الجبل ، وانما هي من الموضع الذي
جرّ منه القاتل لـأخيه حيث قتله حتى انتهى الى المغارة ،
وهي من آيات الله تعالى ، وآياته لا تحصى . وقرأنا في تاريخ
ابن المولى الاسدي : ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم ،
وموسى ، وعيسى ، ولوط ، وايوب ، عليهم وعلى نبينا
الكريم افضل الصلاة والسلام . وعليها مسجد قد أتمن
بناؤه ، ويصعد اليه على أدراج ، وهو كالغرفة المستديرة ،
وحولها اعواد مشرجبة مطيعة بها ، وبه بيوت ومرافق
للسكنى . وهو يفتح كل يوم خميس . والسترج من الشمع
والفتائل تقد في المغارة ، وهي متسعة . وفي أعلى الجبل
كهف منسوب لآدم صلى الله عليه وسلم ، وعليه بناء ، وهو
موضع مبارك . وتحتة في حضيض الجبل مغارة ، تعرف
بمغارة الجوع ، ذكر ان سبعين نبياً ماتوا فيها جوعاً ، وكان
عندهم رغيف ، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ،
ويدور عليهم من يد الى يد ، حتى لحقتهم المنية ، صلوات

الله عليهم ، وعلى هذه المغارة ايضاً مسجد مبني ، وابصرنا فيه السرج فقد نهراً .

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة ، من بساتين وارض بيضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها . وكل مسجد يستحدث بناؤه ، او مدرسة ، او خانقة ، يعين لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملازمين لها ، وهذه ايضاً من المفاخر المخلدة . ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط او مدرسة ، وتتفق فيها الاموال الواسعة ، وتعين لها من مالها الاوقاف . ومن الامراء من يفعل مثل ذلك ، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل .

وبآخر هذا الجبل المذكور ، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد ، الروبة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى : ماوى المسيح وأمه صلوات الله عليها ، وهي من ابداع مناظر الدنيا حسناً ، وجمالاً ، واشراقاً ، واتقان بناء ، واحتفال تشييد ، وشرق وضع ، هي كالقصر المشيد ، ويصعد اليها على ادراج . والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها ، وهي كالبيت الصغير . وبازائها بيت يقال : انه مصلتي الخضر صلى الله عليه وسلم . فيبادر الناس للصلاة

بهذين الموضعين المباركين ، ولا سيما المأوى المبارك . وله باب حديد صغير ينغلق دونه ، والمسجد يطيف بها ، ولها شوارع دائرة ، وفيها سقاية لم ير احسن منها ، قد سيق اليها الماء من علو ، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار ، متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه ، لم ير احسن من منظره . وخلف ذلك مطاهر ، يجري الماء في كل بيت منها ، ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان . وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ، ومقسم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة انهار ، يأخذ كل نهر طريقه . واكبر هذه الانهار نهر يعرف « بِشَوْرَا » ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نقر له في الحجر الصلد اسفلها ، حتى انفتح له متسرب واسع كالغار ، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان او الرجال من اعلى الربوة في النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسرّبه تحت الربوة ويخرج اسفلها ، وهي غاطرة كبيرة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ، ولا اشراف كاشرافها حسناً وجهاً واتساع مسرح للابصار . وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى ، فتحار الابصار في حسن اجتماعها ، وافتراقها ، واندفاع انصبابها . وشرف موضوع هذه الربوة ، وبمجموع حسناتها ، اعظم من ان يحيط به وصف واصف في غلو مدحه . وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير .

ويتصل بها اسفل منها ، بقربة من المسافة ، قرية كبيرة تعرف « بالتيرب » ، قد غطتها البساتين ، فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه . وبها جامع لم يرا احسن منه ، مفروش سطحه كله بفصوص الرخام الملون ، فيختل لناظره انه ديباج مبسوط . وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة ابواب ، يجري الماء فيها ، ويطيف بها . وفوقها لجهة القبلة قرية كبيرة ، هي من احسن القرى ، تعرف « بالمزة » ، وبها جامع كبير وسقاية معينة . وبقريه التيرب حتام ، واكثر قرى هذه البلدة فيها الحمامات ^١ .

١ — رحلة ابن جبير ، ٢٦٣ - ٢٦٥ .

٣ الرّجالون الأوروبيون في دمشق

وطد المماليك حكمهم في مصر ٦٤٨/١٢٥٠ ، ولم يمرّ عليهم
نصف قرن من الزمان حتى كانوا قد ضموا فلسطين ولبنان
وسورية الى امبراطوريتهم ، وبذلك اخضعوا ما كان من قبل
دويلات لاتينية في الساحل ، وقضوا على بقايا الامارات الايوبية
في الداخل . وكانت اليد التي تحكم الآن يداً اقوى من ذي قبل .
ومن ثم فان الميل الى التوسع الذي كان قد اخذ سبيله الى دمشق
في القرن السادس (الثاني عشر) ازداد الآن قوة . ففي اوائل
القرن الثامن (الرابع عشر) انتقلت النشاطات التجارية من
الشوارع الضيقة في المدينة المسوّرة الى ميدان تحت القلعة الذي
كان يتطور بسرعة ، والذي كان له دور فعال في حياة المدينة
الاقتصادية . ولم يقتصر الامر على هذا بل ان الحياة الاقتصادية
انتعشت عموماً لان المناطق المحيطة بدمشق زاد اعتمادها عليها ،
ولان المدينة كان يرد عليها عدد متزايد من الحجاج الذين وجدوا
في دمشق منطلقاً الى مكة المكرمة . ومن ثم فقد ارفع عدد
الناس الذين كانوا بحاجة الى الزاد والمؤن ، لا اثناء اقامتهم في
دمشق وحسب ، بل للتزود للطريق الى مكة ذهاباً واياباً ،
وكانت هذه السفرة تقتضي من الوقت ثلاثة شهور او اربعة .
ذلك ان الطريق بين دمشق ومهبط الوحي كانت تجتاز صحارى

قاحلة ، وكان الحجاز نفسه بسلداً فقيراً ، فكان من المحتم على الحجاج ان يحملوا من الزاد ما يحتاجونه مسافرين ذهاباً واياباً وما يلزمهم اثناء حجتهم . يضاف الى ذلك ان دمشق اصبحت قاعدة عسكرية تنطلق منها الحملات المملوكية لحرب المغول والصليبيين والارمن او تأديباً للمعصاة والثوار . وكان الجنسـد بحاجة الى المؤن والدواب والمدة والثياب . وهكذا تهيأت لدمشق الاحوال التي تساعد على الازدهار .

كان المماليك مولعين بالبناء ، وبعض ما عمرهم في العمارة في دمشق ، مثل المدرسة الظاهرية ، لا تزال حتى اليوم تبهج الناظر . وقد افاح هذا للبنائين ومهرة الصنائع ان يحافظوا على المهارة التقليدية في الفنون الزخرفية . وكانت المدارس كثيرة عبر التاريخ المملوكي ، وكان ثمة مشاركة جدية في شؤون العلم والتعليم طوال هذه المدة . ولما وجد السكان التشجيع على السكنى خارج الاسوار ، اتسعت الضواحي القديمة ونشأت ضواح جديدة ، بحيث اصبح الكثير منها بلداناً صغيرة .

وزادت القلعة اهمية ، خاصة لما استقلت عن نائب السلطنة في دمشق واصبح لها واليها الخاص . والقلعة التي اصبحت جزءاً رئيسياً من تحصينات المدينة ، كانت موضع عناية آل زنكي والايوبيين والمماليك . وقد ادرك الملك العادل ، عم صلاح الدين وخليفته ، حاجة القلعة الى التوسيع والتقوية . فهدم المتصدع

من البناء حتى كاد ان يعفوا اثره ، وجعل الامراء مسؤولين عن القلعة الجديدة التي كانت تحيط بها اسوار حصينة عليها اثنا عشر برجاً ويدور بها خندق . ومما كان داخلها مدرستها وجامعها وحماماتها وبركة . ثم بني داخلها تدريجاً مساكن للامراء والجنود والخدم .

كانت القلعة خربة تقريباً لما رحل قازان عن دمشق ، ولم يرَ الملك الظاهر انه من المناسب ان يترك المدينة خلواً من الحصون . لذلك فانه بنى اسوارها وعني بترميم القلعة . فلما تم ذلك اصبح للقلعة اربعة ابواب كان احدها ، وهو الشرقي ، يؤدي الى المدينة وكان الناس يعبرون اليها على جسر متحرك . وكانت الابواب الثلاثة الباقية توصل القلعة الى مناطق خارج المدينة ، وكان الغربي منها يؤدي الى ميدان الصولجان . ولما ولي سنجر امور دمشق في عهد الملك الاشرف في اواخر القرن السابع (الثالث عشر) ، اقام ابنية اخرى داخل القلعة وهدم بعض المنازل والحوافيت في الرقعة المصاوبة لها . ولعل الفصل بين ادارة المدينة والقلعة يرجع الى هذا الوقت .

ومع ان جيوش تيمور دمرت بعض دمشق وقلعتها ، فقد اعيد بناؤها حالاً بعد رحيله . ذلك ان السلاطين لم يكن بإمكانهم ان يهملوا هذا الجزء الهام من التحصينات .

وقد تركت القلعة اثراً كبيراً في نفوس الرحالين الاوروبيين .
ففي اواسط القرن الثامن (الرابع عشر) كتب نيكولو
البوغيبونسي يقول « في طرف المدينة تقع قلعة حصينة يدور
بها سور مرتفع ويتوصل اليها عبر جسر يقوم على نهر [خندق] ،
ويقوم اعوان السلطان على حراستها » . ولما زار جورجيو
غوتشي المدينة بعد ذلك بقليل قال في وصف القلعة :

ان دمشق ، او الجزء المحاط بالاسوار منها ، تبلغ
مساحته ثلاثة اضعاف مساحة فلورنسة . ويدور بها سوران :
اي ان هناك اولاً سوراً متيناً يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ ذراعاً
وهو خارج الخندق ، وثمة سور آخر يبعد عن الاول بين
١٥ و ١٦ ذراعاً ويزيد ارتفاعه عشرة اذرع عن السور
الاول . والسوران محصنان ، اذ تقوم عليها ابراج مستديرة
كثيرة على ابعاد تبلغ خمسين ذراعاً في كل حالة . والابراج
أعلى من السورين . وحول السورين يوجد خندقان ، داخلي
وخارجي . والمدينة المذكورة حصينة جداً بأسوارها
وخنادقها . ويوجد في داخلها قلعة لها اسوار وخنادق ،
ويبلغ محيطها نحو الميل . ولا يقيم فيها الا حملة السلاح الذين
يدافعون عن المدينة والبلاد باسم السلطان . ولا يسمح لاي
شخص آخر بدخولها . ومنازلها متسعة بحيث يمكن ان

يأوي إليها نحو عشرين ألفاً من رجال الحرب مع
خيولهم^١ .

وقد زار دمشق ، بعد حملة تيمور ، برتراندوت
دو لا بروكويه ، فقال عنها :

لدمشق قلعة حصينة ، تقع في مواجهة الجبل ، تحيط
بها خنادق عريضة عميقة ، يشرف عليها نائب من ثقات
السلطان ، ولا يسمح لوالي دمشق بدخولها . وقد دمرها
تيمور سنة ١٤٠٠/٨٠٢ بحيث سوى بها الأرض ، ولا تزال
آثار هذه النكبة ظاهرة للعيان . كما انه على مقربة باب
القديس بولس لا يزال حي يأكمله من المدينة لم يرمم بعد ،
وفي المدينة خزان (فندق ؟) يأوي اليه التجار حيث
يأمنون على انفسهم ومتاعهم^٢ .

وقد كان بين الرحالين الذين زاروا دمشق (سنة
١٥٠٢/٩٠٨) ، قبل سقوط دولة المماليك ، لودفيكو دي فارتما
البولوني — نسبة الى بولونا — الذي ابدى اعجابه بالقلعة فقال
عنها :

١ — انظر : Gucci p. 142

٢ — انظر بروكويه في : Early Travels in Palestine p. 204

يتحتم عليك ان تعرف ان في مدينة دمشق قلعة حصينة
جميلة ... يضاف الى ذلك انه في كل زاوية من القلعة
المذكورة يوجد رنك فلورنسي محفور بالرخام . وهي
[القلعة] محاطة بخنادق ولها اربعة ابراج متينة التحصين
وجسور متحركة . وتعلو هذه الابراج دوماً مدافع قوية
ممتازة . وثمة خمسون مملوكاً ، من خدم السلطان الكبير ،
يقيمون مع والي القلعة باستمرار^١ .

وكان البدرى ، وهو مصري سكن دمشق وكان كبير العناية
بمراقبة الحصون ومواطن الجمال ، قد كتب قبل لودفيكو بقليل
يقول :

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فانها
قدر مدينة وبها حمام وطاحون وبعض حوانيت لبيع
البضائع . وبها دار الضرب التي تضرب فيها النقود . وبها
الدور والحواصل وبها الطارمة التي ليس على وجه الارض
احسن منها كأنها افرغت بقالب من شمع ينظر الراي اعلاها
فيحسن نظره وان طال مرآه .

وهي تسامت رموس الجبال . يقال ان تمرلنك لما ان

The Itinerary of Ludvico di Varthema. London - ١
don, 1928, p. 8-11.

حاصرها وعجز عنها امر ان ينقب تحتها وتقطع الاشجار وتعلق بها حتى اذا انتهى تعليقها اطلق النار فيما تحتها من الاخشاب وظن انها تفسخ بذلك وتسقط شذر مذرف يبلغ مراده من اخذ القلعة . فلما عمت النار فيما تحتها بركت بصوت ازعج الوجود .

وبالقلعة آبار ومجار للماء ومصارف بحيث اذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه ^١ .

كان بين المباني الرسمية التي حفلت بها دمشق قصر بيبرس ودار العدل والميادين الكثيرة التي كان ابعدها شهرة الميدان الاخضر وميدان الحصى . وكانت مواكب نائب السلطنة والاستعراضات الحربية تقام في هذا الميدان ، كما كان السلطان يلعب الصولجان فيه او يتمتع بمشاهدة سباق الخيل . اما ميدان تحت القلعة فما كان اكثر من يرده من المهرجين والمشعوذين والقصاصين ، وخاصة في ليالي الصيف .

وكان الى جنوب المدينة ميدان آخر ، على مقربة من حي الميدان اليوم ، يزخر بالناس مرتين في العام : عند مغادرة مواكب الحجاج وعند عودتهم . ولم يغفل الرحالون والكتاب عن تدوين

١ - البدرى : نزهة الانام في محاسن الشام ، (القاهرة ١٣٤١) ص ٦٠ .

وصفهم لهذه المناسبة الهامة . (وانا اذكر شخصياً استمتاعي
بمثل هذا الاحتفال في طفولتي ايام كانت اسرتي تقطن دمشق) .
وقد كتب ابن جبير عن ذلك .

وقد كان بين الرحالين الاوروبيين الذين تأثروا بهذا الاحتفال
برتراندون دو لا بروكيه الذي خلف لنا صورة حية لعودة
الحجاج قال :

في اليوم التالي لوصولي شاهدت قافلة الحجاج عائدة من
مكة . وقد قيل انها كانت تتألف من ثلاثة آلاف من الابل .
وفي الواقع استغرق دخول الحاج المدينة يومين وليلتين . وقد
كانت هذه الحادثة ، على مألوف القوم ، يوماً بالغاً في
الحفاوة . وقد خرج والي دمشق ، يحف به مقدمو المدينة ،
لاستقبال الحجاج اجلاً للقرآن الذي كانوا يحملونه
وكان ملفوفاً بغلاف من الحرير ، عليه كتابة عربية ، وكان
الجل الذي يحمله مجللاً بالحرير . وكان يتقدم الجل اربعة من
حملة المزممار والطبول والدريكات الكثيرة وكلها تدق . وكان
يحيط بالجل نحو ثلاثين رجلاً يتنكب بعضهم الاقواس ،
ويشهر آخرون السيوف ، ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون
النيران بين الفينة والفينة . وكان يتلو الجل ثمانية رجال
اجلاء ، يعلون ابلا سريعة العدر ، وخيولهم المجنوبة مجللة
بالقماش المزركش تعلوها مروج مزخرفة ، على عادة القوم

هناك . وقد تلا ذلك هودج مغطى بالقماش الجليل يجعله
جلان ، وفيه سيدة هي قريبة للسلطان . وقد كان ثمة عدد
كبير من هذه الدواب المجللة بالقصب المذهب . اما الحجيج
فقد كانوا عرباً واثراكاً وبرابرة ومغولاً وفرساً وغير ذلك
من المسلمين ^١ .

واما المكان الذي لم يكن يعلو عليه مكان في دمشق ، ولا
يزال كذلك الى يوم الناس هذا ، فهو الجامع الاموي الكبير .
ولعل ذلك يعود الى انه لم يكن استعماله مقصوراً على فئة دون
اخرى ، بل كان مفتوحاً لجميع المسلمين . وابن بطوطة ، الرحالة
المغربي الشهير الذي زار دمشق في القرن الثامن (الرابع عشر) ،
واقام فيها بعضاً من الوقت ، خلف لنا وصفاً مطولاً للمسجد
الجامع . ومع انه نقل بعض ما قاله عن ابن جبير ، فقد اضاف
بضعة انطباعات شخصية يجد القارئ فيها متعة خاصة . فقد
لاحظ انه كان للجامع ثلاثة عشر اماماً يقومون على خدمته .
ولاحظ ايضاً ان الجامع « اعظم مساجد الدنيا احتفالاً ، واتقنها
صناعة » وابدعها حسناً وبهجة وكالاً ، ولا يعلم له نظير ولا
يوجد له شبه ^٢ .

١ - بروكييه في المرجع نفسه ، ص ٣٠١ .

٢ - رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٢١٠ .

وقد وصف ابن بطوطة التعليم في الجامع بقوله :

ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرفوعة ، وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحاً ومساءً . وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى وإنما يقرأون القرآن تلقيناً . ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لان المعلم للخط لا يعلم غيره^١ .

ولعل من خير ما وصل إلينا في وصف الدور الذي كانت يقوم به الجامع الأموي هو الذي تركه ابن فضل الله العمري ، وهو من جغرافيين القرن الثامن (الرابع عشر) ، قال العمري :

وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل ، لانه يمرّ المدارس والبيوت والأسواق . وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة والقراء ، ومشايخ العلم والاقراء ،

١ - المصدر نفسه ، ٢١٢ - ٢١٣ .

ووجوه اهل التصدير والاقتناء ، ووظائف الحديث وقراء
الاسباع والمجاورين من ذوي الصلاح . فلا تزال اوقاته
معمورة بالخير ، آهلة بالعبادة . قل ان يخلو طرفة عين في
ليل او نهار من مصل ، او جالس في ناحية منه لاعتكاف ،
او مرتل لقرآن ، او رافع عقيرته بأذان ، او مكرر في
كتاب علم ، او سائل ومستول ، ومفت ومستفت . هذا
الى من يأتي هذا المسجد مستأنساً لحديث ، او مرتقباً لقاء
اخ ، او متفرجاً في فضاء صحنه وحسن مرأى القمر والنجوم
ليلاً في سمائه . هذا الى فسحة الفضاء وطيب الهواء وبرد
رواقاته ، اوقات الهجير ، وحسن مراقبي ميازيبه ، احبان
المطر . وفي كل ناحية من وجهها قمر .

وعلى هذا الجامع من الوظائف المرتبة ما لا يستقل به
الا ديوان ملك ، وعليه جلائل الاوقاف . الا ان الايدي
العادية قد استولت على كثير منه لشبه الاكابر والمناصبات ،
وغير ذلك مما عمل عليه على سبيل النصبات ^١ .

وكانت اسواق دمشق ومتاجرها مدعاة لادخال السرور
والمتعة الى نفوس زوارها ، سواء أتوا من الشرق او الشمال او
الجنوب . وما كانت دمشق العصر المملوكي لتختلف عن دمشق

١ - المري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

في اي عصر آخر ، ولم يكن زوارها الاوروبيون ليختلفوا عن غيرهم من هذه الناحية . وقد تنبه بعضهم لا الى البضائع المعروضة للبيع فحسب ، بل الى تنظيم الصناعات والاسواق ، وزودنا البعض الآخر بمعلومات عن تنظيم العمل في المدينة .

فسورية بلد غني ، وقد كان موقعها على الطرق التجارية ذا فائدة خاصة لها في العصور المتوسطة . ولم تفقد دمشق من هذه التجارة فحسب ، بل من الصناعات ايضاً ، وخاصة من الحرف . فقد كانت دمشق تنتج السكر والنقولات وتصنع المنسوجات القطنية والحريرية والزجاج والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصايون والعطور وماء الورد وماء الزهر والشموع والاحذية . وكانت المدينة مشهورة ايضاً بصياغة الذهب والفضة . وكانت تقرر بالقاهرة ، وكان بعض الاوروبيين يفضلونها على باريس وقلورنسة .

وثمة فئة من الرحالين الاوروبيين مثل نيكولو البوغبونصي وليوناردو فرسكوبالدي وجورجو غوتشي وسيمون سيولي وفون سوخم الذين زاروا الاراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) ، او مثل برتراندون دولابروكييه ولودفيكو دي فارتما ، الذين شملت زياراتهم المشرق في الوقت نفسه : جميع هؤلاء قادتهم اسفارهم الى دمشق . وهؤلاء هم مرشدونا في زيارة دمشق في تلك الفترة .

فلتزر اجزاء المدينة المختلفة في صحبة هؤلاء النفر . وقد ضمت رواياتهم بعضها الى البعض الآخر ، فتمّ لنا منها صورة ذات ألوان زاهية لاسواق دمشق ومتاجرها .

ان جميع الشوارع الواقعة داخل اسوار المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها . وبيوتها مرتفعة ومبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان ، اذ ان جدرانها الداخلية مطلية باللون الازرق الفاتح ، وارضها مكسوة بالفسيفساء . ما اقل البيوت التي لم تكن فيها نوافير منحوتة من الرخام ، هي متعة للناظرين .

ومع ان عشرين ألفاً قد يغادرون دمشق الى مكة لاداء فريضة الحج ، فلم يبد على المدينة كأن احداً تركها ، وقد كانت شوارع كثيرة يملأها الناس كما يملأ الناس شوارع فلورنسة يوم عيد القديس يوحنا . وكما كانت المدينة مزدحمة بالسكان فان شوارعها كانت مكتظة بالتجار والصناع .

ان ما يصنع في دمشق ، من اي نوع كان ، كبيراً كان او صغيراً ، هو اكثر مما يصنع في اي مكان آخر في الدنيا ، سواء في ذلك الاقمشة الحريرية والقطنية والكتانية والذهب والفضة والنحاس من جميع الاصناف ، والزجاج من جميع الانواع . فقد حذق الصناع ذلك كله ، وكان منهم مهرة الصناعة في كل فن . وعندهم الى ذلك غالب اصناف الفواكه

الجيدة ، التي يحفظونها من سنة لآخرى . والتلج موجود باستمرار في دمشق ، فكان يوضع في الصيف على الفواكه باصنافها فيحفظها طازجة ويبردها بحيث تكون لذيدة المطعم . وتباع جميع الماء كل في الشوارع كالخبز والماء واللحم المطبوخ على اختلاف انواعه ، وكل اصناف الفواكه ، اذ ان الناس هناك لا يطبخون في البيوت ، بل انهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق . ويقوم في اماكن كثيرة ، في طول المدينة وعرضها ، طهاة امامهم اللحوم المتنوعة ، يطهون كل شيء ، وكل ذلك جيد ونظيف ، وبذلك يمكنهم ان يقدموا الى كل انسان ما يرغب فيه والكمية التي يريدونها من لحم او غيره من مطبوخ الطعام . ويتنقلون في انحاء المدينة يبيعون ما عندهم ، حاملين متاعهم من موقد ومقلاة يغلي ما فيها ولحم ووعاء وكبشة صغيرة وماء وملح وكل ما هو لازم ، على موائد لكل منها اربع ارجل يركبها الواحد على رأسه . اما الزبائن فيجلسون على صفات في الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر ، ويشربون الماء القراح والحشاف . وما اقل ما ينفقونه على طعامهم او مطبخهم او ثيابهم .

ولنعد الى متاجر دمشق : فهذه لا يصدق وصفها الذي لم يرها بأم عينه ، وذلك بسبب كثرة التجار والصناع في المدينة باجمعها ، داخلها وخارجها . لا يمكن تصور شيء غير موجود في الضواحي . فاجمل ما في الدنيا وانبله واشده

اتقان صنعة موجود هناك . فلو أنك سرت متفرباً لرأيت
المصنوعات الرائعة الانيقة الدقيقة التي تغريك ، بحيث لو
أنك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرهما
واخراج النقود لشراء بعض ما هناك . فإن خيالك لن يمكنه
أن يتصور شيئاً وبأي شكل كان الا وجدته هناك . فلاقشة
الحريية الكثيرة من أي نوع او لون تجدها هناك على افضل
واجمل ما يعرفه العالم . وثمة كميات كبيرة من الاقطان ،
من اجمل ما في العالم ، بحيث لو شاهدتها احد الناس ، ولم
يكن خبيراً ، لحسبها حريراً لما هي عليه من النعومة واللمعان
والدقة والجمال . والبروكار ايضاً متوفر في الاسواق . وما
اكثر ما يصنع هناك من طسوت النحاس واباريقه التي تبدو
كأنها من الذهب ، وكلها مزخرفة بنقوش من الاشكال
والاوراق ، كما يعمل من الفضة اشياء فنية جميلة تسر العين
لرؤيتها .

وهكذا فالصناعات جميعها كانت من شغل مهرة الصناع
واقدرهم ، هذا الى ما كانوا يتحلون به من نظام جميل ،
ونبيل ايضاً . اذ انه اذا كان الاب صائفاً فان ابنائه ما
كان لهم ان يتعلموا غير صناعته ، وبذلك توارث الناس
الصناعة جيلاً بعد جيل وترتب على ذلك انهم بلغوا الغاية في
المهارة الصناعية في قنونهم . وحوانيتهم مرقبة انيقة نظيفة ،
بحيث ان مشاهدتها كانت باعثاً على السرور ، وجميعها

تتألف المتاجر . وكانت الحوانيت تمتلئ بنفس السرعة التي تباع المتاجر فيها ، اذ انه كان لديهم مستودعات كما ان بيوتهم كانت تتألف البضائع .

والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق قد تربك الكاتب ، ولكن قد يقع الذي لم يرها في ارتباك وحيرة اشد . وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات و اضاف الاشياء الموجودة ، لا يضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به . اذ انه بالاضافة الى ما ذكر فان اسواق دمشق فيها الحجارة الكريمة والجواهر والافاويه التي تأتيها من الهند . وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الامور بان ما في دمشق من المتاجر يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة . ولك ان تتصور ما اجمل هذا كله عندما تقع العين عليه : اما اللسان فيعجز عن القول ، كما يعجز العقل عن التصور .

يسكن في تلك المدينة عدد هائل من الناس ، بحيث ان شوارع دمشق مكتظة دائما . وكان لهم ترتيب جميل لحراسة الشوارع التي فيها التجار والصناع ليلا . ان اكثر شوارع دمشق مسقوفة او معقودة ويتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف ، واذا جن الليل اوقسدوا المصابيح الزجاجية في الشوارع كلها بحيث يكون بين

المصباح والآخر اثنا عشر ذراعاً، فترى ليلاً وكأنها في وضوح النهار ، بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد . وقد قيل ان عدد المصابيح التي كانت توقد كل ليلة كان يبلغ نحو ثلاثين الف مصباح . وكان في كل شارع حراس يقومون على حراسة الحيوانيت ، ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج ليلاً ان لم يكن معه قنديله . فاذا عثر على شخص دون ان يكون معه قنديل قبض عليه واقتيد امام الحاكم الذي يفرض عليه غرامة معينة . ومن ثم فلم يتعرض احد لشر قط . واذا اعتبر الواحد عدد السكان في تلك المدينة وجد انه كانت هناك افضل اسواق الخبز واللحم من كل صنف وخبر الاشياء ، باستثناء الخمر ، لان السكان لا يشربونها . والخطب قليل . وكل شيء يباع بالوزن . وبسبب قلة الخطب يتجنب الكثيرون الطبخ في البيوت . بل انه كان هناك عدد كبير من الطهاة وكلهم غاية في النظافة ، وكان باستطاعة كل انسان ان يحصل على كل ما يريد مطبوخاً طبخاً جيداً ونظيفاً^١ .

زار برتراندون دولا بروكويه دمشق في اواسط القرن التاسع (الخامس عشر) وقد جاءها من بيروت . وبعد زيارته لفلسطين اتجه شمالاً في سورية . وقبل ان ينضم الى حاشية مملوك ذاهب الى تركية ابتاع الاشياء التي احتاجها من دمشق . وها نحن اولاء نتقل هنا تجاريه وملاحظاته عن المدينة بكاملها :

١ - مختارات من فرسكويالدي وغوتشي وسيفولي .

بعيد هذه المقابلة وافقت احد اصحابي الى السوق وابتعت
رداءين طويلين حتى انها كانا يبلغان الكاحل ، وعمة كاملة
وحزاماً من الجلد ورباطين من القطن اضم بهما طرف الرداء ،
وكيسين صغيرين احدهما لاستعمالي والآخر للحصان [مخللة]
يطعم فيه شعيره وتبنه ، وملعقة من الجلد وملحاً وبساطاً
اثام عليه . وآخر ما ابتعته معطف من الجلد الابيض ،
بطنته بالكتان ، لاستعماله ليلاً . وابتعت كذلك جعبة
بيضاء كاملة ، وقد تدلى منها سيف وسكاكين . اما الجعبة
والسيف فقد ابتعتها سرّاً ، اذ لو عرف القيمون على القضاء
بذلك لتعرضنا ، انا والبائع ، الى مخاطر كبيرة .

ان سيوف دمشق هي افضل واجمل ما يصنع في سورية .
ومن الممتع ان يلاحظ الواحد اسلوب الصناع في صقلها .
فان هذا يتم قبل ان تسقى . ويستخدمون في سبيل ذلك
مقبضاً من الخشب شكت فيه قطعة من الحديد يجرونها على
نصل السيف ، وبذلك ينعم ملمسه ، كما تنعم الفارة سطح
الخشب . ثم يسقونه ويلمعونه . وهذا التلميع بلغ حداً
كبيراً من الاتقان بحيث ان الواحد اذا اراد ان يصلح من
شأن عمامته اتخذ من نصل السيف مرآة . واما السقي فهو
كامل ، ولم ارقط سيوفاً تقطع بمثل هذه الدرجة من
الاتقان . ويصنع في دمشق ، وفي ما جاورها من الديار ،
مرايا من المعدن التي تضخم الاشياء كما في الزجاج العاكس

النور . رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فعمكست من الحرارة ما كان كافياً لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ او ١٦ قدماً .

قد يبلغ عدد سكان دمشق ، على ما بلغني ، نحو مئة ألف نسمة . والمدينة غنية تجارية وهي ، بعد القاهرة ، أهم مدينة في دولة السلطان . يمتد حولها الى الشمال والجنوب والشرق سهل متسع ، ويرتفع غربها جبل عال وقد قامت الضواحي عند اقدامه . يخترقها نهر تقسمته قني متعددة . والمدينة وحدها يدور بها سور بديع ، لان الضواحي اوسع من المدينة . ولم تقع عيناى على حدائق اوسع ولا على فواكه اجود ، ولا على مياه اغزر من هذا الذي شاهدته هناك . فالماء هناك غزير الى حد انه قلما يعثر على بيت ليس فيه نافورة . وحاكم المدينة نائب السلطنة لا يعلو عليه ، في مصر وسورية ، سوى السلطان . ولكن بسبب الثورات التي قام بها بعض الحكام فان السلطان يحاول ان يضيق على الحكام حيطة وحذراً ١ .

١ - انظر بروكبييه ، المصدر نفسه ص ٢٩٤ ، ٣٠١ - ٣٠٤ .

۴ دمشق وضوآچیهَا

تضافرت عوامل جديدة على تطوير ضواحي دمشق : منها الازدهار الاقتصادي وحكم القانون واستعادة المناطق الساحلية من الصليبيين وتركيز التجارة على الطرق السورية بسبب ما كان يعترض الطريق الشمالي البيزنطي من متاعب . وما اكثرت الرحالين الذين زاروا سورية في القرن الثامن (الرابع عشر) والذين لاحظوا ان دمشق خارج الاسوار كانت اكبر من دمشق الداخلية .

كانت الضواحي موضع عناية ابن بطوطة ، وهو يشير الى الضواحي التي زارها ابن جبير - النيرب والمزة وقاسيون - ثم يضيف الى ذلك وصفاً للربوة والصاحية . وكان يرى في الربوة ما كانت التقاليد قد اقامتها حولها من انها «ربوة ذات قرار معين» . وقد ردد ابن بطوطة قول ابن جبير في عبارته :

وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها واقتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام اعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من

المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظايفها للامام والمؤذن
والصادر والوارد^١ .

ثم اضاف الى ذلك من عنده :

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في
كتاب الله ذات القرار والمعين وماوى المسيح عيسى وأمه
عليها السلام . وهي من اجل مناظر الدنيا ومتنزهاتها ،
وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة .
والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير
وازاءها بيت يقال انه مصلّى الخضر عليه السلام يبادر
الناس الى الصلاة فيها وللمأوى باب حديد صغير والمسجد
يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من
علوّ وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من
رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل .
ويقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء^٢ .

كان من امر احتلال الصليبيين للقدس (١٠٩٩/٤٩٢) أن
قرر بعض اهل التقوى المسلمين ان يهجروا المدينة المقدسة كي
يتخلصوا من حكم المسيحيين . ومن هؤلاء ابو عمر ابن قدامة

١ - رحلة ابن بطوطة، ١ : ٢٣٥ .

٢ - رحلة ابن بطوطة ، ١ : ٢٣٣ - ٢٣٤ .

المقدسي، الذي خرج من القدس مع جماعة كبيرة من الاتباع، لم تلبث أن ازداد عددها. واستقر المقدسي وجماعته في مسجد أبي صالح خارج باب شرقي في دمشق، ثم انتقلوا فيما بعد إلى سفح جبل قاسيون حيث أنشأوا مدرسة وزاوية للحنابلة. وقد سماهم الناس الذين نزلوا في جوارهم الصالحين أما لصلاحهم أو بسبب إقامتهم في مسجد أبي صالح قبلاً. وعلى كل حال فقد سميت الصاحبة الجديدة الصاحبة نسبة إليهم. يقول ابن بطوطة في وصف الصاحبة التي كانت مزدهرة أيام زيارته لها:

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها أملح من داخل دمشق لأجل الضيق الذي في سككها. وبالجهة الشمالية منها وبض الصاحبة وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكمول، وتجري لهم ولبن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس. وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجأ وأهل الصاحبة كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه^١.

وقد كان في الصاحبة في أواخر العهد المملوكي سبع دور

١ - المصدر نفسه، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

للحديث وستة عشر رباطاً وثمان وثلاثون حارة وواحد وسبعون مسجداً .

وقد ذكر احد الكتاب المتأخرين ما كانت تنتجه الصالحية وغيرها من ضواحي دمشق من الفواكه والخضار ومنها التفاح والحوخ والتوت والرمان والتين والخس والهليون ، وكانت تفرس فيها الزهور وخاصة الزنبق والبنفسج .

واذن فقد كانت دمشق محاطة من كل جهة ، الا من الجهة الشرقية ، بضواحي مزدهرة فيها بيوت ومدارس ومساجد واسواق واماكن للتهو ، وكانت طبيعة المنطقة تضي على هذه الاماكن سحراً خاصاً . ولم يكن الدمشقيون يحارون اين يقضون ايام المتعة والصفاء سواء في ذلك الربيع والصيف والخريف ، وعندهم الغوطة والجبهة ووادي البنفسج وبين النهرين وقطية واليلكي . وكان في كل من هذه الامكنة حوانيت تبيع الطعام الجاهز والحلوى ، وكان ثمة امكنة يأوي اليها الناس اذا احتاجوا الى ذلك . وكان المؤمنون يجدون حتى زوايا يختلقون اليها حيث يقيمون الذكر والصلاة مع غيرهم . وكان البعض يذهبون الى ربض الاديرة المسيحية طلباً للنزهة ، وكانوا في الاغلب من الحالات موضع ترحيب . فالناس كانوا ، على العموم ، يقضون اوقات فراغهم في نزهة ، وكانوا يحسنون التصرف هناك . اما

اولئك الذين كانوا يسعون وراء رغبات وامور لا يقبلها المجتمع
فقد كانوا يختلفون الى اماكن محجوبة ، وما كان اكثرها .

. . .

قد اشرنا عدداً من المرات الى مدارس دمشق ، وقد آن لنا
ان نتحدث عنها بشيء من التفصيل في هذه المرحلة من دراستنا .
بين ايدينا اسماء ست وثمانين مدرسة عرفت في دمشق زمن المماليك ،
وكان بعضها قد انشئ قبل ايامهم . وقد كان منها مدرستان
طبيتان مرتبطتان بالبيمارستانين . اما المدارس الاخرى فقد
كانت مدارس دينية ينحصر التدريس فيها في المذهب الشافعي
والحنفي والحنبلي . ولم يكن للمالكية في سورية مكانة خاصة
ايام المماليك ، الا ان بعض المؤلفات المعنية بتلك الحقبة تشير
احياناً الى مدارس مالكية .

وقد كان بين المدارس الدينية الاربع والثمانين في دمشق
خمس وثلاثون شافعية واربع وثلاثون حنفية وثمان حنبلية وسبع
مشتركة لمذهبيين او اكثر . ومما هو حري بالذكر ان الايوبيين
كانوا على المذهب الشافعي ، وان دمشق كان قاضي القضاة فيها
دوماً شافعيًا حتى ايام بيبرس الذي امر بأن يكون في كل من
القاهرة ودمشق وحلب اربعة من قضاة القضاة . وكان الحنابلة
حديثي عهد في الاستقرار في دمشق ، اذ جاءوها في القرن

الخامس (الحادي عشر) ومطلع القرن السادس (الثاني عشر) من الشرق ، وخاصة من بغداد .

كانت اوقاف المدارس غنية . وقد كان حبس الملك لتوفير النفقات للمؤسسات امرأ قديماً في الاسلام ، ويبدو ان هذا دفع الى الامام في ايام تلك السلاجقة وآل زنكي والايوبيين والمماليك . كان اولو الامر يقومون بالعمل والاثرياء يقتفون آثارهم . وكان المؤلف ان يزود الوقف المدرسة بحاجتها من المدرسين ، الذين قد يبلغ عددهم ثلاثين مدرساً ، والماء والنور والاثاث . وكانت بعض الاحباس الغنية توفر الخبز والنفقات للطلبة . وما اكثر ما يجد الباحث انه كانت ثمة مدارس تأتي نفقاتها من ايجار سوق بضعة بساتين ومن بعض اسباب التجارة . فقد كان وقف المدرسة الريحانية مكوناً من بستانين وقطعة ارض وبستانين للخضار وخمسة اسداس مزرعة واسطبل . وكان وقف المدرسة الجوانية غنياً على ما يبدو من نفقاتها : فقد كان كل من مدرسيها الخمسة والعشرين يتقاضى ١٣٠ درهماً شهرياً بالاضافة الى كيل كبير من القمح وآخر من الشعير (لدابته) ايضاً . وكان الناظر على المدرسة يتناول عشر مدخول المدرسة لقاء اتعابه وسهره ومراقبته ما تملكه المدرسة . وقد خصص ٨٠٠ درهم لتنفق على الاحتفاء بليلة نصف شعبان . وكان للناظر ان يزيد عدد المدرسين وغيرهم اذا رأى في ذلك نفعاً .

كانت ابلية هذه المدارس ضخمة جميلة : فقد اقام المهاليك صروحاً للعلم اصيلة . كانت المدرسة تتألف من صحن متوسطه نافورة محفورة من الرخام ، تدور به اروقة في جهاته الاربع . وكان احد هذه الاروقة يؤدي الى المسجد ، فيما كان رواق ثان يكتهي بمقصورة تعلوها قبة ويقوم في وسطها في غالب الاحيان قبر صاحب المدرسة ، وكان يحاذي الجانبين الآخرين الغرف المعدة للدرس والقراءة .

كان لكل مدرسة ناظرها الذي كان اليه النظر في الوقف وضبط الحسابات وتسدير ائفاق الموارد وفق رغبات الواقف . وكان الناظر يختار من اهل العلم ، وغالباً ما كان قاضي قضاة المذهب ، وقد كان التدريس بعض واجباته . وكان بين اصحاب التدريس المحدثون والقراء والفقهاء وشيوخ النحو . وثمة ما يؤكد ان الحساب والمنطق درسا في بضع المدارس في دمشق .

كانت مدارس الضواحي تغلب عليها السعة الشديدة ، مثل مدارس الصالحية — كالمدرسة الضيائية والاثابكية والصاحبة والعمرية ، كما انها كانت غنية في اوقافها . فقد كان في الضيائية مكتبة احتوت المهددين القديم والجديد ، على ما روى ابن عبد الهادي ، وقد ظلت موضع اشراف حسن الى حملة نيمور على دمشق . ولعل العمرية كانت ابعد مدارس الصالحية ثراء . انشأها العالم ابو عمر بن قدامة مدرسة للحنابلة في اواخر القرن

السادس (الثاني عشر) ، لكنها أصبحت فيما بعد مدرسة للمذاهب السنية جمعاء . وبسبب الاضافات المستمرة تدريجياً آلت الى مجموع كبير من القاعات والصحون ومسجد وغرف صغيرة كان الطلاب يمشون فيها . وكان لها من الاوقاف ما مكن ناظرها من توزيع الف من الارغفة يومياً بالاضافة الى الخبز الذي كان يدفع به الى اصحاب التدريس . وكان مئات من الناس يتناولون طعام الافطار في رمضان من مطبخ الممرية ، وكان الطعام يتكون من اللحم والحبوب والحلوى . فاذا جاءت ايام الاعياد طعم الحاضرون لحماً وحلوى أشهى وألذ ، وسمح لهم باستعمال الحلل والماء الساخن . وكانت مكتبة العمرية بالغة الثروة في الكتب ، ولم يكن استخدامها مقصوراً على اهل المدرسة فحسب .

. . .

بني في دمشق ، بين سنتي ١١٥٠/٥٤٥ و ١٥٠٠/٩٠٦ ستة بيمارستانات كان اثنان منها قائمين لمسا زارها ابن جبير سنة ١١٨٤/٥٨٠ . فالبيمارستان النوري وسع في القرن السابع (الثالث عشر) ، وظل الزوار والمؤرخون يتأثرون به حتى في القرن التاسع (الخامس عشر) . وقد انشئت بيمارستانات اخرى قرب باب البريد وفي الميدان الاوسط وفي الصالحية وفي النيرب .

كان المؤلف ان يقوم بالحكام ببناء البيارستانات، لكن اثنين من بيارستانات دمشق الستة ، على الاقل ، بناها الاثرياء . وكان بناء البيارستانات ، مثل مؤسسي المدارس ، يتركون لها من الاوقاف ما يكون ايراده كافياً لصيانتها وضمن سيرها . فالبيارستان القيمري في الصالحية كان يقتفع بريع قريتين وأملاك اخرى يبلغ مجموعها قريتين ونصف القرية ومنطقة فيها مطاحن وخمسة وثلاثين حانوتاً واسطبل وخانين وغير ذلك .

كانت اكثر البيارستانات مقسومة الى موضعين : الواحد للرجال والآخر للنساء ، وكان هناك مقاصير للجراحة واخرى للأمراض الداخلية وسواها لامراض العيين . وكان للمجانين مقاصير مقتطعة منه . وكان الاطباء يشرفون على المقاصير ويخبرون الناظر الذي كان يعين لمثل هذا المنصب بعد تدبر دقيق للامر . وكان الناظر اذا ولي امر البيارستان تلقى الاوامر والنصح في كيفية معاملة المرضى . ولم يكن من الضروري ان يكون الناظر نفسه طبيباً : فقد كان من المتعارف عليه ان العمل كان يتطلب مقدرة ادارية ومناقب خلقية اكثر من تطلبه حذق الطب .

أنشأ البيارستان القيمري امير مملوكي من اصل كردي هو سيف الدين (تو ٦٥٥/١٢٥٧) ، وكان على سفح الجبل ، ويشرف على دمشق ، حتى ان تيمور نفسه اعجبه المنظر من هناك . وكان يتألف من قاعة كبيرة تركز على أعمدة ، يحيط بها من

جهتين من جهاتها مقاصير خاصة بالمرضى . وكان يصاقب هذه غرفتان كبيرتان (واحدة للرجال واخرى للنساء) مخصصةتان للمصابين بالهَيْضَة والسَّهَال . وكان ثمة مقصورة كبيرة تحفظ فيها الادوية على اختلاف انواعها . وكان للبيمارستان عيادة خارجية تفتح للجمهور يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع ، وكان المرضى يعطون الادوية مجاناً . وكان مطبخ البيمارستان يعد الاطعمة العادية والاطعمة الخاصة للمرضى . وكان ثمة قسم للمجانين وبذلك يتم البناء المجمع . وكان القائمون على البيمارستان فيهم طبيب وكحال وصيدلي وممرضون وممرضات وخدم ، على رأسهم ناظر يشرف على المكان ويدير شؤونه . والجدول التالي يبين الموظفين وجعالاتهم .

الموظف	الرتب الشهري بالدرهم (للوَاحِد)	حصة القمح الشهرية بالمكيال (للوَاحِد)
لاطباء (٣)	٦٠ - ٧٠	من نصف الى واحد
ناظر	٤٠	نصف
كحال	٤٥	نصف
خدم (٣)	١٣	سدس
مساعداً	١٠	سدس
صيدلي	٢٦	ثلث
ناظر الوقف	٦٠	واحد (وواحد من الشعير)
امام	٤٠	ثلث
بناء	١٣	سدس
عتالون	٨	سدس

وقد تتبع بعض البيمارستانات مدارس طبية، مثل البيمارستان النوري حيث كان الاطباء يعنون بالمرضى ويدرسون الطب في بناء مجاور للبيمارستان . وكان تدريس الطب يتمتع بكثير من الحرية لانه لم يكن يخضع لرقابة الدولة . وقد ألف مدرسو البيمارستان النوري واطباؤه سنة وثلاثين كتاباً في الطب — وهو عدد ضخم يقتجه معهد واحد .

وكان ابن علي الدخوار احد كبار الاطباء والمدرسين ، وكان يدرس الطب في بيته ايضاً ، فلما توفي اوصى بيته ليستعمل مدرسة للطب، مع وقفية كبيرة للانفاق على المدرس ومساعديه.

فاذا نحن نظرنا الى المعرفة الطبية من حيث قيمتها الاجتماعية، وان تطویرها كان عاملاً في تطور المجتمع في المدينة والبلاد ، قلنا بان البيمارستان والمدرسة الطبية الملحقه به كانا مركزين لمثل هذا التطور ، وذلك لانها كانا حرين من التقليد .

إنا وان كنا عرجنا على قلعة دمشق وجامعها وميادينها واسواقها وضواحيها ومدارسها وبيمارستاناتها ، فانه لا يصح اعتبار زيارتنا لها تامة ما لم نزر زواياها .

ان اتساع الدولة الاسلامية وسيطرتها على رقاع متعددة ،

جعل من الضروري ان توضع اجزاؤها النائية ، والاجزاء التي قد تتعرض لثورات داخلية ، تحت رقابة مستمرة . ومن هنا نشأ الرباط حيث كان يقيم المدافعون عن الدين والدولة الذين كانت يتوجب عليهم ان يدفعوا الاذى عن الحدود او اماكن الاضطراب . والاربطة التي كانت تقوم في المدن والقصبات اصبحت ، فيما بعد ، ملتقى المتصوفين . فلما اخذ المتصوفة بتنظيم انفسهم طرقاً ، منذ القرن الخامس (الحادي عشر) ، اقاموا اماكن خاصة باجتماعاتهم وهي التي اطلق عليها اسم زاوية او خانقاه ، والكلمة الاولى عربية اما الثانية فهي فارسية اصلاً . وكانت الزاوية في غالب الاحوال مكاناً يلجأ اليه اهل التقوى والورع . وعلى كل فانه منذ القرن السابع (الثالث عشر) اصبحت الكلمات الثلاث - الرباط والزاوية والخانقاه - تستعمل دون تفريق بحيث انها صارت تعني الشيء نفسه . ولم تكن دمشق لتشهد عن هذه القاعدة .

يبدو من الاطلاع على الروايات الكثيرة ان دمشق كان فيها في ايام المماليك ثمان وسبعون زاوية للرجال وزاويتان للنساء . ولم يكن يكلف المقيمون فيها ، سواء في ذلك اهل البلد والغرباء او المقيمون دوماً والضيوف ، انفسهم اي مشقة - فقد كانت رزقهم ياتيهم رغداً . فكانوا من ثمة يصرفون وقتهم كله في العبادة والتعلم ، اذ ان الزوايا كانت مراكز للتعليم ، شأنها في

ذلك شأن المدارس ، الا انها كانت اكثر انطواء ، حتى في الدروس الدينية . ومن المهم ان نتذكر انفسه ليس من السهل الفصل بين العلم والتقوى في الاسلام .

مرّ بنا ما قاله ابن جبير عن الزاوية بشكل عام ، فلنرافقه الآن في زيارة لزاوية اخرى ، لعلها من افخم ما عرفتة دمشق من الزوايا . يقول الرحالة :

ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في اعلاه مساكن لم ير اجل اشرافاً منها ، وهو من البلد بنصف الميل ، له بستان عظيم يتصل به ، وكان متنزهاً لاحد ملوك الاتراك . فيقال : انه كان فيه احدى الليالي على راحة ، فاجتاز به قوم من الصوفية ، فهريق عليهم من التبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر . فرفعوا الامر لنور الدين ، فلم يزل حتى استوهبه من صاحبه ، ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم^١ .

وقد كان في دمشق في ايام المماليك عدد من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار في دنيا الاسلام ، على نحو ما عرف في غيرها

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٣ .

من المدن. وكان اشهرها القادرية والوفائية والقلندرية والنبوية التي كانت ابرزها واكثرها اتباعاً في دمشق .

كانت زاوية ابن داود اكبر زوايا الصالحية ، وكان فيها خزان للماء وعرصة متسعة ومسجد حسن البناء ومقاصير كثيرة للفقراء ومكتبة وموضع خاص بالنساء . وكان فيها معلوما وخطبائها وكانت تمقد حلقات الذكر فيها اعاشي الخميس من كل اسبوع .

٥ المَكَانُ وَمُشْكَلَاتُهُم

كانت رجالو العصور المتوسطة يعتبرون دمشق في المنزلة الثانية بعد القاهرة، والاوروبيون منهم كانوا كثيراً ما يذكرون ان سكانها اكبر عدداً من سكان أيّ من باريس او فلورنسة. ومع ان تقدير عدد السكان يختلف من كاتب الى آخر، فأنسه من المعقول القول بأن سكان دمشق كانوا حول مئة ألف نسمة .

كان العرب الغالبة الساحقة من سكان دمشق، وكانوا يستعملون العربية في البيت والمدرسة والسوق، لكن جماعات من غير الناطقين بالضاد وفدوا على دمشق في أيام المماليك، او لعلهم اتت بهم السلطات الحكومية عمداً. فالتركان جاموا أيام آل زنكي ان لم يكن قبلاً، وجاء صلاح الدين بالاكراة كما ان الجنود الشراكسة والأتراك واكبوا الحكام وامراء الاجناد من المماليك .

كان اغلب السكان من المسلمين، الا ان فئات من المسيحيين واليهود كانوا يقطنون المدينة. وكان للمسيحيين حي خاص بهم في جنوب شرق المدينة على مقربة من باب توما، كما ان اليهود كانوا يقطنون في قسم مماثل من المدينة جنوبي الشارع المستقيم

الممتد من باب الجابية الى باب شرقي . وقد قدر بنيامين الططيلي عدد اليهود بدمشق بنحو ثلاثة آلاف ، « بينهم كثيرون من اهل العلم والثراء » ، كما انه يشير الى وجود نحو مئتين من السمرة . ومع انني لم اقف على اي تقدير للمسيحيين ، فالذي يبدو لي انهم كانوا اكثر عدداً من اليهود .

وقد وصف ابن جبير كنيسة دمشق العظمى فقال :

وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم ، تعرف بكنيسة مريم ، ليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها . وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير امراً عجيباً تبتهت الافكار ، وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب ، وهي بأيدي الروم ، ولا اعترض عليهم فيها ^١ .

وقد ورد وصف للاماكن المعظمة عند المسيحيين في دمشق في كلام لرحالة من اهل القرن الثامن (الرابع عشر) ، جاء فيه ما يلي :

ثم دخلنا دمشق حول الظهر من اليوم التاسع من الشهر المذكور ، وهي مدينة كبيرة وجميلة ، فيها اشياء كثيرة شهيرة بديعة ، وهي تتفوق على كل البلاد التابعة للسلطان في

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ .

كل شيء . وذكر دمشق هناك مثل ذكر باريس عندنا . واول ما يذكر هو انه على بعد نصف ميل من دمشق نجد المكان الذي ضرب فيه المسيح القديس بولس قائلاً له شاول ، شاول لماذا تضطهدينى ؟ وفي سور دمشق يوجد ايضاً النافذة التي هرب منها بعد ان قبض عليه اليهود وسجنوه ، وبعدها ذهب القديس بولس الى القدس لبحث عن القديس بطرس . وفي دمشق هذه يوجد بيت حنانيا الذي ارشد الرب القديس بولس بوجوب الذهاب اليه ، لما ضربه الرب كما ذكرنا . وهناك عمده حنانيا . وعلى بعد غلوتين من اسوار دمشق يوجد حقل يدفن فيه المسيحيون الذين يتوفون في المدينة ، سواء في ذلك الكاثوليك والارثوذكس والارمن واصحاب الزنار . ويوجد في وسط الحقل وبين القبور حجر من الرخام الابيض مربع ، ذراع في ذراع تقريباً ، يقال انه الحجر الذي قطع عليه رأس القديس جرجس . والمسيحيون جميعهم يحترمون المكان احتراماً كبيراً ، ويذهبون الى هناك يومياً ، وخاصة في ايام الاعياد المسيحية ، ليقبلوا الحجر اعظماً له . والحجاج جميعهم يأخذون قطعاً منه . ويقال ان ايوب ولد في دمشق هذه في سفح جبل يبعد خمسة اميال عنها ، ويرى من جميع انحاء دمشق ، ومثل ذلك يقال في حقل قريب من الطريق الممتد خارج دمشق حيث قتل قابيل اخاه هابيل .

ثم على بعد نحو اثني عشر ميلاً من دمشق يوجد كنيسة
معظمة جميلة ودير، والدير للروم الارثوذكس وخاص بالنساء
— ولم نجد غيره ديراً خاصاً بالنساء في كل اسفارتنا في
تلك النواحي . والكنيسة والدير معظمان وجميلان
ويشبهان ما عندنا هنا الى حد كبير . والسطح وظاهر
الجدران من الآجر ، والمكان يعظمه المسيحيون والمسلمون
كثيراً وفي المكان ايقونة لسيدتنا التي يؤمن بها
الكثيرون هناك ومن هذه الايقونة ينز زيت تعطيه
الراهبات الى الحجاج ، وهو معظم عندهم . والمكان يقع في
بلاد جميلة غنية . وقضينا هناك ليلة ونصف يوم ثم عدنا الى
دمشق^١ .

كان في دمشق في القرنين الثامن والتاسع (الرابع عشر
والخامس عشر) جالية اوروبية صغيرة تتكون من رجال اعمال
من بنادقة وقطلونيين وجنوبيين وفلورنسيين وكالابريين
وفرنسيين — وقد ذكر بعض الرحالين انهم كانوا كثيرين .
كان لهم مخازن في المدينة فيها الاقمشة المتنوعة ، من الحرير والساتان
والقطيفة والنحاس ، وغير ذلك من المتاجر التي يتطلبها السوق .
وكان كثيرون من التجار حريصين على شراء الافاويه والطيوب
التي كانت تشحن الى اوروبا عبر بيروت . وكان للجماعات

١ — انظر غوتشي ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

قناصل او مقدمون يهتمون بشؤونهم ، ونحن نعرف انه كان ثمة على الاقل قنصل لقطانية ومقدم للبندقية . وكان اما هؤلاء او بعض كبار التجار يستضيفون كبار الزوار الاوروبيين الذين يقدمون دمشق .

كان المسيحيون واليهود في دمشق ، شأنهم في ذلك شأن اهل الكتاب في الدولة الاسلامية ، يعتبرون ذميين ، يدفعون الجزية ولا يولون اعمالاً ذات مسؤولية . وحتى ما اشترعه القرآن الكريم والسنة النبوية من حق حماية اهل الكتاب لم ينقذهم دوماً من بعض الظلم . وقد كان الناس ، في ايام المماليك ، يتعرضون للكثير من مصادرة الاملاك وفرض الغرامات من قبل الدولة او السلطان وسوء المعاملة لاسباب متنوعة . وكان المسيحيون واليهود معرضين لذلك ، على ان مثل هذه المقارم كانت تقع على المسلمين ايضاً . وقد يكون حظ المسيحيين الاجانب خيراً من حظ ابناء البلد اذا كانت ثمة معاهدة مع دولهم تحميهم ، ولو ان الرعاع لم يتقيدوا دوماً بمثل هذه الاتفاقات . ومن ثم فاننا نقرأ بين الحين والآخر عن صبيان اساءوا الى الزوار ، ثم اختفوا عن اعين رجال الدولة . ويبدو ان احدى الوسائل التي لجأت اليها الدولة لتوفير الحماية للتجار المسيحيين الاجانب هي ان تحملهم على البقاء في بيوتهم ليلاً . يقول برتراندون دولا بروكويه : « كان موظفون مخصوصون يقومون

باقفال منازل التجار المسيحيين ، ثم يفتحونها في الصباح ، عندما يروق لهم ذلك .

. . .

يشتهر اهل دمشق دوماً بلياقتهم في سلوكهم ، سواء اكان ذلك فيما بينهم ام مع الغرباء . وقد تأثر كثيرون ممن اقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتمام بالآخرين . والافتطباع الذي وصفه كل من ابن جبير وابن بطوطة (وهذا كان قد جاب في طول الارض وعرضها وتنقل برأ وبحراً) حري بان ينقل . فقد قال ابن جبير :

ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، واذا لقي احد منهم آخر مسلماً يقول : جاء المملوك او الخادم يرسم الخدمة ، كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطياً ، والجد عندهم عنقاء مغرب ، وصفة سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوي بينهم هويًا . وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ، وعند استعراض رقيق الاماء ، فيا عجباً لهؤلاء الرجال ،

كيف تحلّوا بسايات ربّات الحجال ، لقد ابتذلوا انفسهم فيما
تأنف النفوس الالوية منه ، واستعملوا تكفير الذنبي المنهي في
الشرع عنه ا لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل

ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير ، بجميع هذه
الجهات كلها ، انهم يمشون وايديهم الى خلف ، قابضين
بالواحدة على الاخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة
المشبهة بأحوال العناية مهانة واستكافة ، كأنهم قد سبموا
تعنيفاً ، وارثقوا تكتيفاً ، وهم يمتقدون تلك الهيئته لهم
تميزاً لهم في ذوي الخصوصية وتشريفاً ، ويزعمون انهم
يحدون بها نشاطاً في الاعضاء ، وراحة من الاعياء ، والمحتشم
منهم من يسحب ذيله على الارض شبراً ، او يضع خلفه اليد
الواحدة على الاخرى ، قد اتخذوا هذه المشية بينهم سنناً ،
وكل منهم قد زين له سوء عمله ، قرآه حسناً ، استغفر الله
منهم ا فان لهم من آداب المصافحة عوائد ، تجدد لهم
الايمان ، وتستوهب لهم من الله الغفران ، لما بشر به الحديث
المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المصافحة ، فهم
يستعملونها اثر الصلوات ، ولا سيما اثر صلاة الصبح ، وصلاة
العصر . واذا سلم الامام ، وفرغ من الدعاء ، اقبلوا عليه
بالمصافحة ، وأقبل بعضهم على بعض يصافح المرء عن يمينه
وعن يساره ، فيتفرقون عن مجلس مغفرة ، بفضل الله عز
وجل . وقد تقدم الذكر فيما سلف من هذا التقييد انهم

يستعملونها عند رؤية الالهة ، ويدعو بعضهم لبعض ،
بترّك بركة ذلك الشهر ويمنه واستصحاب السعادة والخير
فيه ، وفيما يعود عليه من امثاله ، وتلك ايضاً طريقة حسنة ،
ينفعهم الله بها ، لما فيها من تعاطي الدعوات ، وتجديد
المودات ، ومصافحة المؤمنين بعضهم بعضاً رحمة من الله
تعالى ونعمة ^١ .

ويقول ابن جبير ايضاً عن اهتمام القوم بالوقوف المحبوسة على
العناية بالغرباء ما يلي :

والريوة المباركة اوقاف كثيرة ، من يساتين وارض
بيضاء ورباع . وهي معينة التقسيم لوظائفها : فمنها ما هو
معين باسم النفقة في الادم للبائتين فيها من الزوار ، ومنها ما
هو معين للأكسية برسم التغطية بالليل ، ومنها ما هو معين
للطعام ، الى تقاسيم تستوفى جميع مؤنّها ، ومؤن الامين
الراقب فيها برسم الامامة ، والمؤذن الملتزم خدمتها ، ولهم
على ذلك كله مرتب معلوم في كل شهر . وهي خطة من اعظم
الخطط .

والامين فيها الآن من بقية المرابطين المشوفين ومن
اعيانهم ، يعرف بأبي الربيع سليمان بن ابراهيم بن مالك ،

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة ، وله في الشهر خمسة دنانير حاشا فائدة الربوة ، وهو متسم بالخير ومرسم به ، وهو متعلق بسبب من اسباب البر في ايواء اهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات ، يسبب لهم وجوه المعاش من امامة في مسجد ، او سكنى بمدرسة تجرى عليه فيها النفقة ، او التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع يحبى اليه فيها رزقه ، او حضور في قراءة سبع ، او سدانة مشهد من المشاهد المباركة يكون فيه ، ويجري عليه ما يقوم به من اوقافه ، الى غير ذلك من الوجوه المعاشية ، على هذه السبيل المباركة مما يطول شرحه . فالغريب المحتاج هنا ، اذا كان على طريقة الخير ، مصون بحفوظ غير مريق ماء الوجه . وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال ، ممن عهد الخدمة والمهنة ، يسبب له ايضا اسباب غريبة من الخدمة : اما بستان يكون ناطورا فيه ، او حتام يكون عيناً على خدمته وحافظاً لأثواب داخلية ، او طاحونة يكون اميناً عليها ، او كفالة صبيان ، يؤديهم الى محضرهم ويصرفهم الى منازلهم ، الى غير ذلك من الوجوه الواسعة . وليس يؤتمن فيها كلها سوى المقاربة . الغرباء ، لانهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الامانة ، وطار لهم فيها ذكر ، واهلها لا يأتنون البلديتين . وهذا من الطاف الله تعالى بالغرباء ، وله الحمد والشكر على ما يولي عباده . وان شاء احد المتعلقين باسباب المعارف التعرض هنالك

للسلطان ، يقبله وبكرمه ويرتسه ، ويحري عليه بحسب قدره ومنصبه ، قد طبعت هذه البلاد وملوكها على هذه الفضائل قديماً وحديثاً . وقد تسلسل بنا القول الى غير الباب الذي نحن فيه ، والحديث ذو شجون ، والله كفيل بحسن العون ، لا رب سواه ١

ثم يقول :

ومرافق الغرباء بهذا البلد اكثر من ان يأخذها الاحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل ، والمنتمين للطلب . فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً . وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم ، لكن الاحتفال بهذه البلدة اكثر ، والاتساع اوجد . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الامور المعينات كثيرة . فأولها فراغ البال من امر المعيشة ، وهو اكبر الاعوان وأهمها ، فاذا كانت الهمة فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر الا من يدين بالعجز والتسوف ، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وانما الخطاب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي ، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل ايها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الامل

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

والاولاد وتقرع سن الندم على زمن التضيق ، والله يوفق
ويرشد ، لا إله سواه ، قد نصحت ان ألفت سامعاً .
وناديت ان اسمعت مجيباً ، « ومن يهد الله فهو المهتد » ،
جلت قدرته ، وتعالى جدّه . ولو لم يكن بهذه الجهات
المشرقية كلها الامبادرة اهلها لأكرام الغرباء ، وإيثار الفقراء ،
ولا سيما اهل باديتها ، فانك تجد من يدار الى برّ الضيف
عجيباً ، كفى بذلك شرفاً لها . وربما يعرض احدهم كسرة
على فقير فيتوقف عن قبولها ، فيبكي الرجل ويقول : لو
علم الله فيّ خيراً لأكل الفقير طعامي . لهم في ذلك سر
شريف .

ومن عجيب امرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة
الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله . فهم
يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهاقون عليهم تبركاً
مهم .^١

وقد كتب ابن بطوطة عن الموضوع ذاته لكنه وضع التبرة
على الوقف واهميته فقال :

والاوقاف بدمشق لا تحصر انواعها ومصارفها لكثرتها:
فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن

١ - رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

الرجل منهم كفايته ، ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى ازواجهن وهن اللواتي لا قدرة لاهلن على تجهيزهن ، ومنها اوقاف لفكاك الاسارى ، ومنها اوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها اوقاف على تعديل الطرق ورصفها لان ازقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها اوقاف لسوى ذلك من افعال الخير . حكاية : مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفه من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب اوقاف الاراني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها قدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن ، وهذا من احسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل هذا . واهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد . وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد . وكل من انقطع بحجة من جهات دمشق لا بد ان يتأتى له وجه من المعاش من امامة مسجد او قراءة بمدرسة او ملازمة مسجد يحى اليه فيه رزقه او قراءة القرآن او خدمة مشهد

من المشاهد المباركة او يكون كجملة الصوفية بالخوانسق
تجربى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريباً على خير لم
يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزري بالروثة . ومن
كان من اهل المهنة والخدمة فله اسباب آخر من حراسة
بستان او أمانة طاحونة او كفالة مبيان يندر معهم الى
التعليم ويروح . ومن أراد طلب العلم او التفرغ للعبادة وجد
الاعانة التامة على ذلك . ومن فضائل اهسل دمشق انه لا
يفطر احد منهم في ليالي رمضان وحده البتة ، فمن كان من
الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعو اصحابه والفقراء
يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوق صنع
مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبيادية فانهم يجتمعون
كل ليلة في دار احدهم او في مسجد ويأتي كل واحد بما عنده
فيفطرون جميعاً^١ .

كان الممالك يحبون الفخامة والمظمة وكانوا حريصين على
عرض ذلك بأسلوب لا يجارى ، سواء في الاقامة والرحيل وفي
الحرب والسلم وفي دور القضاء واقامة الولايم . فاذا هبط
السلطان دمشق كان يحرص على ان يرى في دمشق ما ألفه في
القاهرة . فاذا صلى الجمعة في الجامع الاموي الكبير استوثق
بنفسه من ان المقصورة زينت على خير ما يمكن ووضع حولها

١ - رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٧ - ٢٤١ .

الحرس الضروري ، وان مظلمته الصفراء كانت ترفع فوق رأسه اذ يحتاز البلد في موكبهِ الى الجامع ، وان السرج المطرز بالذهب كان يستعمل ، والا فانه يحمل امامه اذا مشى ، وان الرنوك وعليها ألقابه ونقوشه كانت ترفع امامه ، وان العدد المألوف من الطبول والكوسات كانت ترافق موكبهِ . اما في دار العدل فكان السلطان يجلس على كرسي يرتفع عن مقاعد الآخرين ، يحف به الوزراء والامراء والقضاة جلوساً على الجانبين .

وكان نائب السلطنة في دمشق يحذر حذر سيده : فكانت مواكبهُ مثلاً للفتخامة . فاذا ذهب الى ميدان الخيل او ميدان تحت القلعة او المزة او اي من الميادين في الضواحي ، حفاً به الامراء يرتدون الاقبية الحمراء ويعتَمرون العائم الانيقة ويمتنطون صهوات الجياد المكسوة بالسروج الجميلة يتدلى من جوانبها القماش المزركش الثمين . هناك كان نائب السلطنة وحاشيته يدرجون الجياد او يرشقون السهام او يلعبون بالصوالة . فاذا بدأوا العودة اخذ مرافقو النائب يترجلون ، بدءاً بصغار الضباط ، فئة بعد فئة عند اماكن معينة ، حتى اذا وصل الموكب دار النيابة لم يبق سوى النائب ممتطياً صهوة جواده . ثم يدخل القاعة الكبرى حيث يجد كرسيّاً خاصاً مجللاً بالحرير الاصفر موضوعاً على منصة فيتخذ منه مكان جلوسه ، ويجلس القضاة الى يمينه واصحاب المناصب الادارية الى يساره ، ويتوزع الباقون اماكنهم جلوساً او وقوفاً .

وعندما تقدم اليه المظالم في رقاع ينقلها الموظفون من اصحابها ، فينظر فيها ويبيدي رأيه الذي يدونه كاتب قائم لذلك ، ثم يعهد الى اصحاب الوظائف الخاصة بتنفيذ احكام النقيب . وكان يتلو ذلك ، في العادة ، سباط يشترك فيه الموجودون جميعهم . فاذا فرغ القوم من الطعام تفرقوا الا خاصة النقيب من النصحاء والامراء وسواهم من اصحاب الوظائف وذلك للتحديث في امور الحكومة وقضاياها .

كانت دمشق ، ولها من الموارد ما ورد ذكره ، تنعم بثروتها التي لم تكن ولا شك موزعة توزيعاً سوياً . وما اكثر ما كانت الاعياد العامة مناسبات لاقامة السباط . فقد احتفى المظفر (١٣٠٨/٧٠٨ - ١٣٠٩/٧٠٩) بعيد المولد النبوي فقدم على سباطه خمسة آلاف من الحرفان وعشرة آلاف من الطيور المحمرة ومئة الف زبدية من الخضار المطبوخة وثلاثون الف صحن من الحلوى ، ودعي القوم الى الاكل . وقد خلف تتكز ، الذي حكم دمشق بضع سنوات ، ثروة بلغت ٧٣٠٠٠٠٠ درهم و ٢٠٧٠٠٠٠٠ دينار فضلاً عن المجوهرات . وفي سنة ١٢٣٩/٦٣٣ توفي الكيال التاجر فترك ثروة قيمتها ٣٠٠٠٠٠٠ دينار ومئة لؤلؤة كبيرة . وفي سنة ١٣٠٠/٦٩٩ فرض قازان على دمشق اربعة ملايين درهم ، ولم تجد المدينة صعوبة في دفع المبلغ ، لولا ان الوسطاء طالبوا بمبالغ ضخمة لانفسهم .

من لغو القول ان الاشخاص الذين ذكروا كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة التي لم تتورع عن اللجوء الى شر الوسائل لجمع الثروة . والتجار كانوا يسيطرون على الاسواق فيفيدون من الربح العادي كما كانوا يفيدون من تقلب الاسعار . وقد كانوا يخفون المتاجر احيانا ، بسبب نقص الغلال او غزو خطير او طلب التجار الاجانب للبضائع ، ثم يبيعونها باسعار مرتفعة او في السوق السوداء . ولكن ماذا كانت حال المواطن العادي الذي كان يسعى السعي الحثيث لتحصيل ما يقوم باوده ؟ الجدول التالي يبين الحاجة الشهرية لاسرة دمشقية عادية ، مكونة من الابوين واربعة اولاد ، في ايام المالك ، باستثناء ثمن الثياب واجرة البيت .

المادة	الكمية بالكيلو	الشن (بالدولار)
القمح	٧٥	٠,٩٥
الارز	١٢	٠,٢١
القطاني	١٢	٠,١٨
اللحوم	١٢	٠,٨٥
السكر	٧	٠,٩٠
الزيت	١٠	٠,٢٥
الخضار	—	٠,٣٠
	المجموع	٣,٦٤

ومن ثم فان رب العائلة كان عليه ان يحصل بين خمسة وستة
من الدولارات شهرياً كي يؤمن حاجات افراد الاسرة .

من المؤسف انني لم اتمكن من العثور على ارقام عن اجور
العمال ، مهرة كالوا او شبه ذلك ، ولكن الوقف ، كان في غالب
الاحيان ، يبين فيه عادة شروط الوقفية والمبالغ المتوجب دفعها
الى من يقومون بالاعمال في المدرسة او الجامع او البيارستان .
وقد لخصت هذه المعلومات في الجدول التالي :

اصحاب العمل	الاجرة الشهرية (بالدولار)
الطبيب	٢١,٠٠
المدرس	٥,٦٠
الامام	٢,٨٠
المؤذن	٢,١٠
المحدث	٢,١٠
المعيد	١,٤٠
التفصيل	٠,٧٠
القارئ	١,٠٠
الحمال	١,٤٠

من الواضح ان الطبيب هو الوحيد الذي يمكنه ان يعيش
براحة ، واما المدرس فقد يخرج من اجرة الشهر لا عليه ولا له .

الا انه يجب ان نذكر ان اكثر اصحاب الوظائف الصغرى كان يصرف لهم الخبز ايضاً ، ولعلهم كانوا يعملون بعض الوقت في هذه الوظائف. ومع ذلك فما لا شك فيه انهم لم يكونوا يحسدون على ما كانوا فيه .

فضلاً عن التجار واولئك الذين يعيشون من الوقف ، كان ثمة عمال ، مهرة وغير مهرة ، وفلاحون وموظفون في الدولة (عدا القضاة) واعداد اخرى من الناس الذين تكون منهم سكان دمشق . ومع اننا لا نملك معلومات عن هؤلاء ، فانه يبدو ان المؤسسات الخيرية كانت تؤوي عدداً كبيراً من الفقراء ، كما ان هؤلاء كانوا يحدون اعمالاً صغيرة كثيرة يقومون بها لقاء مكافآت زهيدة تعين على المعيشة . ومع ذلك فن الواضح ان عدد الذين كانوا ينعمون بالحياة من سكان « مدينة دمشق النبيلة » هم قلة . وكان من حسن حظ دمشق ان اماكن المتعة الطبيعية في ضواحي دمشق كانت توفر للناس ، كما لا تزال توفر لهم اليوم ، السرور والحبور لقاء القليل من النفقات .

عرفت دمشق في زمن المماليك ، كما عرفت ذلك من قبل ، اياماً عسيرة في حياة السكان . فالجوع والقحط والحملات الكثيرة كانت تحمل التجار على اخفاء ما عندهم فيؤدي ذلك الى ارتفاع سريع في الاسعار ، الامر الذي لم يكن من الممكن السيطرة عليه درماً . والجدول التالي هو خلاصة تبين ارتفاع الاسعار في المواد

الغذائية الأساسية في دمشق في القرنين الثامن (الرابع عشر)
والتاسع (الخامس عشر) . وهذه الأرقام مأخوذة عن العمري
والقلقشندي . والجدول يبين الارتفاع بالنسبة إلى الأحوال
العادية .

ارتفاع الأسعار (بالنسبة المثوية)	المادة
٧٠٠ إلى ١٠٠٠	القمح
٦٠٠ إلى ١٠٠٠	الشعير
٣٥٠ إلى ٤٠٠	الأرز
٥٠٠ إلى ١٠٨٠٠	اللحوم
٥٠٠	السكر
٦٠٠	الطيور

٦ إدارة المدينة

كان * الغالب على المدن الاسلامية انها لم تعتمد الانتخاب سبيلا لاختيار الهيئات او الموظفين الذين يشرفون على شؤونها ، فلا الاسلام بمحد ذاته شرع في هذه الناحية ، ولا نشأت اي من هذه المنظمات نتيجة للتجارب التي مرت المدن بها . يجب ان تذكر ايضا ان المدن الاسلامية في العصور المتوسطة لم تجاهد في سبيل الحصول على حريتها ، على نحو ما فعلت نظيراتها في اوروبة ، ومن ثم فلم تنشأ في الاولى المؤسسات البلدية التي عرفتھا الفئة الثانية . فقد كان موظفو المدينة الاسلامية اجمعين يختارهم السلطان . وفي ايام المماليك كانت هذه السلطة ، اي اختيار الموظفين ، يمارسها اما السلطان مباشرة او نائبه . ولم تكن دمشق لتشد عن ذلك : فجميع اصحاب الوظائف الذين كانوا يشرفون على النشاطات المختلفة ويدبرون امورها المدنية ، كانوا موظفين تعينهم الدولة .

فما هم الموظفون الذين عرفتهم دمشق ؟ وبعبارة اخرى من

• انظر زيادة : الحياة المدنية في سورية تحت حكم المماليك (بالانجليزية) ، الفصل السابع .

كان يحكم المدينة ويقوم على حراستها ويعنى بأمورها وينظر في أسواقها ويدير القضاء فيها .

كان في دمشق والـ يعينه السلطان ، لكنه كان نائباً لنائب السلطنة . كانت واجبات الوالي تشمل الحفاظ على الأمن الأمر الذي كان يشرف عليه شخصياً عندما يتفقد الحارات في الليل . وكان يترتب عليه أن يداور العيارين والشطار . وكانت المدينة والضواحي ، باستثناء القلعة ، تحت امرته . وكان للوالي أعوان ينتقلون باستمرار ، إذ لم تكن ثمة مكاتب يقيم فيها هؤلاء . وكان الشرطة وصاحبهم تحت إشرافه ، إلا أنه كثيراً ما كان الوالي نفسه صاحب الشرطة . وكثيراً ما كان صاحب الشرطة يسمح له بأن يتميز عن غسيره بلباس خاص للرأس ، وبذلك يسهل التعرف عليه . وكان كل من يلقي عليه القبض يحضر إلى صاحب الشرطة أولاً للتحقيق في أمره ، ومع أن صاحب الشرطة لم تكن له رتبة قضائية فإنه كان يتصرف في القضايا التي لم يكن فيها خلاف للشريعة .

كانت دمشق ، شأنها في ذلك شأن أي من المدن الكبيرة في جميع الأزمان ، يقطنها عدد كبير من الذين يعيشون بالأمن ويزعجون السكان . ولما كان على الوالي أن يراقب هؤلاء مراقبة عامة ، فإنه كان يحتفظ بمساعدين ، بالإضافة إلى الشرطة ، وكان يلجأ إلى وسائل متعددة للقيام بمسؤولياته . فلاحداث كانوا

يضعون اثناء الليل في الاماكن الهامة ، وكان شيخ الاحداث مسؤولاً عن النظام في محله .

وكانت اكثر شوارع دمشق منارة في الليل ، وكان ثمة جماعة من الناس ، يسمون الضوئية ، كان عليهم ان يحفظوا المصابيح مشتعة باستمرار . وقد اعتاد سكان دمشق سماع طبول القلعة تضرب ثلاث مرات في الليلة الواحدة ، لا من اجل تذكير الناس بالاوقات فحسب ، بل من اجل تنبيه الحرس الى وجوب اليقظة الدائمة .

وعندما كان يقع جرم قتل كان الوالي كثيراً ما يلجأ الى ما يصح تسميته بالعقوبة المشتركة ، بمعنى انه يفرض على سكان الحارة ان يدفعوا دية القتيل ، بالاضافة الى غرامة اذا عجزوا عن اظهار القاتل . وكان على الوالي ان يتأكد بان احكام الشرع فيما يتعلق ببيع المحور جارية تماماً . كما انه كان مسؤولاً عن سلامة الحجاج الى نحو خمسين ميلاً تمتد جنوبي دمشق .

وكان تنفيذ احكام الشرع في انحاء المدينة من عمل القضاة ، الذين كانوا يقومون بذلك تحت اشراف قاضي قضاة المذهب . وقد اقتصر الايوبيون على تعيين قاضي قضاة شافعي واستمر الحال على ذلك ايام المماليك حتى سنة ١٢٦٦/٦٦٤ اذ أمر بيبرس بوجوب تعيين اربعة من قضاة القضاة ليس في القاهرة

فحسب ، ولكن في دمشق وحلب ايضاً ، ومنذ ذلك الوقت اصبح لكل من المذاهب السنية الاربعة قاض للقضاة ، وكانت القضاة مرتبطين به . وكثيراً ما كان منصب قاضي قضاة المالكية اسماً . وقد كانت دمشق ، بسبب اتساع رقعتها وكثرة سكانها ، بحاجة الى عدد كبير من القضاة للنظر في القضايا المختلفة .

كان القاضي يحكم بالشريعة وكان ينظر في جميع القضايا ، التي كان غالبها يتعلق بالامور الشخصية . اما القضايا التجارية فكانت من اختصاص الادارة وكان ينظر فيها عرفاً ، لا بحسب قانون معين ، خاصة اذا كان الاجانب طرفاً فيها . وكان المسيحيون يلجأون الى المحاكم الكنسية في القضايا الدينية ، واليهود كانوا يعرضون مثل هذه القضايا على محاكمهم الدينية .

ومن المؤسسات التي عرفت في دمشق في ايام المماليك الشهود ، الذين كانوا يعينون القاضي في تقرير قضايا العدالة ، وكانوا اشبه ما يكون بكتاب العدل ، خاصة بين القرن الثاني (الثامن) والقرن الرابع (العاشر) ، وقد يحلون الخصومات الصغيرة بانفسهم . ومن ثم فقد كان ارتباطهم بالقاضي وثيقاً ، فهو الذي يعينهم وهو الذي يعزلهم . ويبدو ان هذا النظام ، الذي كان قد اندثر او كاد ، عادت اليه الحياة في القرن السابع (الثالث عشر) وشاع استعماله . فلما ولي الجلال المصري قاضياً في دمشق

(سنة ١٢٢٠/٦١٧) عمد الى جمع الشهود ايام الثلاثاء والجمعة من كل اسبوع في صحن العادلية ، وبذلك كان باستطاعة من اراد التثبت من وثيقة او فض نزاع ، ان يتم له ذلك حالا . ولم يكن يتطلب في الشهود مقدرة خاصة ، الا انهم كانوا دوماً يختارون من الصالحين . وقد كان الكثيرون من الشهود في دمشق من الوراقين والمجلدين الذين كانوا ينهبون الى دور العدل ، بعد الفراغ من اعمالهم ، للقيام بواجباتهم القضائية . وقد اصبح من المألوف فيما بعد ان يجتمع الشهود في اربعة اماكن في دمشق هي : تحت الساعات والخزانة وباب الشامية وسوق ساروجا .

وكان المقي بين الرجال المعنيين بالنظر في شؤون القضاء ، وعمله ان يوضح بعض قضايا الشرع متى اشكلت او استعصت . وقد كان لكل من حلب ودمشق مفتي ، وكانت الولاية بكاملها تقع في نطاق اختصاصه . وقد يكلف مفتي دمشق بالاجابة عن اسئلة تحول اليه من ولاية مجاورة ، ان لم يكن فيها مفتي . وعندنا قضية طريفة من هذا النوع ترجع الى القرن الثامن (الرابع عشر) . فقد حدث ان فئة من التجار الاوروبيين نزلوا عكا سنة ١٣٥٠/٧٥١ ، وسمح لهم ان يحتفلوا بعيد الفصح في المدينة . وقد اعتدي عليهم ، وتلا ذلك بعض الاضطراب الذي وقع بينهم وبين اهل المدينة ، فالقي القبض عليهم ، لكن حاكم عكا لم يعرف على اي اساس يجب ان يحاكموا

– ايحاكمون كما لو كانوا مسيحيين من ابناء البلاد ، ام على اساس انهم يحملون الامان لانهم جاءوا البلاد تجاراً ؟ فاستنجد بالوالي صفد ، الذي كانت عكا تابعة له ، ولكن الوالي لم يستطع ان يقطع برأى ، وكان منصب المفتي يومها خالياً ، فبعث هو بدوره بالقضية الى مفتي دمشق ليبيدي فيها رأيه . وقد اصدر السبكي ، وكان مفتي دمشق يومها ، فتوى تتلخص بانه لما كان من مصلحة الدولة الاسلامية ان تظل علاقات السلطان حسنة مع المدن التي جاء منها هؤلاء التجار ، فانه يجب ان ينظر اليهم على انهم كانوا يتمتعون بالامان ، وبذلك كانت العقوبة التي انزلت بهم خفيفة نسبياً ، ثم اطلق سراحهم .

ومن طريف ما كان يحدث انه عندما كانت تخلو المدينة من ينظر في امرها بسبب هرب واليها او اختفائه ابان حملة شديدة او مجوم عنيف ، كان يجتمع بعض اعيانها ويهتمون بة ضايا المدينة وادارتها . فلما دخل رجال قازان دمشق سنة ١٢٩٩/٦٩٨ ، هرب النظار ، بما في ذلك الوالي ، فاجتمع القاضي وشيخ التداريس ونفر من العلماء وبعض شيوخ الحارات وحملوا العباء انفسهم . ولم يكن ثمة قانون او عرف يصح اتباعه ، ولعل هذه الحادثة لم تكن فريدة في نوعها .

وكانت المصالح الصغرى في المدينة يرئسها موظفون يعرف واحداهم باسم الشاذ . وكان الوالي من المالك ، وكذلك كانت

صاحب الشرطة في الغالب ، ان لم يكن هو الوالي نفسه ، ولكن القاضي والشاذ وغيرهما من الموظفين كانوا من ابناء البلاد . فقد كان ثمة شاذ الزكاة ، الذي كان اليه النظر في جمع الزكاة من كل مسلم مكلف بدفعها ، كما انه كان يترقب عليه ان يجمع من تجار المطارة المترتب عليهم من العشور . وكان هناك شاذ للاوقاف ، وكان عليه ادارة اوقاف المدينة ، ان لم يكن الواقف قد اشترط سبيلاً خاصاً لادارة وقفه . وكان هذا المنصب من اهم مناصب المدينة بسبب الاوقاف الكثيرة المنتشرة في دمشق .

وكان ثمة اربعة موظفين آخر هم شاذ مسابك الزجاج والحديد والنحاس ، وشاذ دار البطيخ والفاكهة وشاذ مصانع السكر وشاذ العشور . وكانت المسابك ملكاً للسلطان ، ومعناها ان الشاذ كان عليه ان يهتم بمصلحة الدولة ، فيحتفظ بالقيود الصحيحة للمتاجر كلها . وكانت اسواق الفاكهة مورداً هاماً للوالي ، فكان على الشاذ ان يتأكد من ان الرسوم كانت تجمع بانتظام . وكان يتحتم على شاذ العشور ان يضمن دفع الرسوم الجمركية المترتبة على التجار الاجانب .

ويبدو انه كانت لسوقين بعينها مكانة خاصة في عين الوالي ، لانهما كانتا تزودان الخزينة بالكثير من مواردها فحسب ، بل لارتباطها بالشؤون العسكرية وامور الامن وهما : سوق الخيل وسوق الرقيق . اما الاولى فلان الجند كانوا بحاجة دائمة الى

الخيل ، وهي عدة النقل الاولى في الحروب ، وكان من المهم ان يستمر جلبها وبيعها . واما السوق الثانية فكانت مراقبتها شديدة خشية ان يقزيا العيون بزي الرقيق فيطلعوا على ثغرات البلاد وبيعثوا بانخبارها الى قومهم ، فضلاً عن ان الممالك كانوا يبحثون عن الخدم والحرس الخاص في هذه السوق .

. . .

وكان لكل من المؤسسات الاجتماعية في دمشق ، مثل البيمارستانات والمساجد والمدارس والزوايا ، ناظرها . ولم يكن من الضروري ان يكون ناظر البيمارستان طبيباً ، لكنه كان من المحتتم ان يختار رجل متين الخلق لذلك . وكان الناظر مسؤولاً في تصرفاته امام نائب السلطنة ، وكان ينظر في اوقاف البيمارستان . اما الاطباء فقد كانوا تحت اشراف رئيس خاص بهم ، سواء في ذلك الاطباء الموظفون في البيمارستان واولئك الذين كانت لهم عياداتهم الخاصة . وقد كان من المتعارف عليه ان يكون في دمشق ثلاثة من هؤلاء الرؤساء : رئيس للاطباء ورئيس للجراحية ورئيس للكحالين . وقد يتولى احد هؤلاء ، اذا كان مبرزاً في علمه ، الجسم الطبي بكامله . وقد تولى بدر الدين مثل هذا المنصب في مطلع القرن السابع (الثالث عشر) .

وكان اليبرودي من كبار اطباء دمشق في القرن الخامس

(الحادي عشر) ، وقد وضع ما يصح ان يسمى ناموساً ادبياً
للمشتغلين بالطب ، الذين كانوا حريصين على السير بموجبه .
فالطبيب هو الذي اجتمعت فيه الخصال التالية :

١ - ان يكون تام الخلق صحيح الاعضاء حسن الذكاء جيد
الرواية عاقلاً ذكوراً خيراً الطبع .

٢ - ان يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن
والثوب .

٣ - ان يكون كتوماً لاسرار المرضى لا يبوح بشيء من
امراضهم .

٤ - ان تكون رغبته في ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما
يلتمسه من الاجرة ، ورغبته في علاج الفقراء اكثر من رغبته
في علاج الاغنياء .

٥ - ان يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس .

٦ - ان يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة ، لا
يخطر بباله شيء من امور النساء والاموال التي شاهدها في منازل
الاعلاء ، فضلاً عن ان يتعرض الى شيء منها .

٧ - ان يكون مأموناً ثقة على الارواح والاموال لا يصف

دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يسقط الاجنة . يعالج عدوه بقية
صادقة كما يعالج حبيبه .

وكان يقوم على شؤون المساجد نظار وخطباء وأئمة .
فالناظر يدير الوقف وينظر في صيانة البناء ، والخطيب كان
مسؤولاً عن خطبة الجمعة كما انه كان يقوم بقسط من التعليم ،
والامام كان يؤم الناس في الصلاة . ولما كان للجامع الاموي
الكبير منزلة خاصة في دمشق وجوارها ، فقد كان كثيراً ما
يتولى نظره قاضي القضاة بذاته . كما كان يرجع اليه النظر في
التدريس بدمشق ، كبارها وصغارها . ولا شك في ان التدريس
الكبار كان يشغلها كبار العلماء — فهم الذين حفظوا للعلم مشعله
في العاصمة السورية .

ومع ان الزوايا كانت من مراكز العلم ، بالاضافة الى امور
اخرى ، فان النظر فيها لم يكن لقاضي القضاة : فقد كانت
مستقلة وكان لها مديروها . فكل زاوية حتى ولو سميت
خانقاه او رباط ، كانت لها شيخ يرجع اليه في امور جماعته او
اتباعه . وكان هؤلاء الشيوخ جميعاً تحت امرة شيخ الشيوخ ،
الذي كان ، في وقت واحد : مديراً للجميع ، وحلقة اتصال
بينهم وبين اصحاب السلطان . فقد كان هؤلاء اهمية خاصة في
نظر اهل الحكم ، اذ انه كان باستطاعتهم ان يخلقوا متاعب
للحكومة لو انهم اثاروا في الناس روح التذمر : لكنهم لم يفعلوا .

فقد فضلوا ان يكونوا حلفاء السلطان ، وما اكثر اولئك الذين كانوا يسبحون بمحمده . الا ان الزوايا كانت تقع تحت رقابة شديدة خشية ان ينضم اليها شيعة او اسماعيلية : والواقع ان الكثيرين ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقيمون فيها كانوا كثيري الحرص على تعقب هؤلاء . اما بوصفها مراكز للمعرفة الصوفية فقد ادت الزوايا خدمات جلى للادب والفكر ايام المماليك ، الامر الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

لقد تردد كثيراً ان اكثر المدرسين ، على اختلاف مراتبهم ، كانوا في خدمة الدولة ، التي كانت حريصة في اختيارهم ، وخاصة اصحاب النفوذ منهم . الا انه يجب ان نتذكر ان عدداً لا يستهان به من هؤلاء المدرسين كانوا يتخلون عن مناصبهم ذات الدخل الكبير ويعتصمون في بيوتهم ، حتى لا يخضعوا لنزوات الحكام . ذلك انهم كانوا ينظرون الى مهنتهم نظرة اجلال ، وكانوا يرون في الحفاظ على علوم الدين واجباً وعلاً كبيرين . ويتضح ذلك من اسماء اولئك الذين قبلوا بالتدريس : لقد كانوا كبار العلماء في ايامهم .

. . .

ادرك المماليك ، كما عرف ذلك من قبل ، انه كان ايسر عليهم ان يكون اتصالهم برعاياهم من غير المسلمين عن طريق خاص بهم .

فما داموا قد منحوا وضعاً خاصاً وسمح لهم بأن يمارسوا عقائدهم وعباداتهم بحرية، فإنه حري بهم ان تكون لهم منظماتهم الخاصة، على الاقل عندما تكون مسائل الاحوال الشخصية والامور الدينية هي موضع الامتثال .

وكان للمسيحيين بطريركان (بطريركان) في دمشق : الواحد للملكيين والثاني لليعاقبة . وكان كل منهما مسؤولاً امام نائب السلطنة ، وكان اختصاص كل منها يشمل المسيحيين التابعين له لا في دمشق وحدها فحسب ، بل في طول المملكة وعرضها . وكان فيما يتعلق بهذه الناحية يأتي تحت السلطان مباشرة .

وكانت الطائفة تختار بطريركها (بطريركها) ، الا ان تعيينه كان يتم بمرسوم يصدره السلطان . وقد جاء في التوقيع السلطاني ، بالاضافة الى امور اخرى ، ما يلي :

فلذلك رسم بالامر الشريف — لا زال احسانه العميم لكل طائفة شاملاً ، وبرّه الجسم لسائر الملك بالفضل متواصلاً — ان يستقر بطريركاً على النصارى الملكية بالشام وأعماله ، على عادة من تقدمه في ذلك ، وتقوية يده على اهل ملته ، من تقادم الكريم المستمر حكمة الى آخر وقت .

فليباشر هذه البطركية مباشرة بمودة العواقب ،

مشكورة لما تحلت به من جميل المناقب ، وليحكم بينهم
بمقتضى مذهبه ، وليسرفيهم سيراً جميلاً ليحصل لهم غاية
قصده ومأربه ، ولينظر في أحوالهم بالرحمة ، وليعمل في
تعلقاتهم بصدق القصد والهمة ، وليسلط الطرق الواضحة
الجليلة ، وليتخلط بالاخلاق المرضية ، ليفصل بينهم بحكم
مذهبه في موارثهم وأنكحتهم ، وليعتمد الزهد في أموالهم
ومتعتهم ، حتى يكون كل كبير منهم وصغير بمثابة لأمره ،
واقفاً عندما يقدم به اليه في سره وجهره ، منتصبين لاقامة
حرمته ، وتنفيذ أمره وكلمته ، وليحسن النظر فيمن عنده
من الرهبان ، وليرفق بذوي الحاجات والضعفاء : من
النساء والصبيان ، والاساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة
للاحسان ، احساناً جارياً في المساء والصباح ، والغدو
والرواح .

فليمتثلوا أمره بالطاعة والاذعان ، وليجيبوا نهي من
غير خلاف ولا توان ، ولا يمكن النصارى في الكنائس من
دق الناقوس ، ورفع اصواتهم بالضجيج ولا سيما عند اوقات
الاذان لاقامة الناموس ، وليتقدم الى جميع النصارى بأن
كلاً منهم يلزم زيته ، وما جاءت به الشروط العمرية
— عمر بن الخطّاب رضي الله عنه — لتكون أحوالهم في
جميع البلاد مرعية ، وليخش عالم الحقيّات ، وليستعمل

الأناة والصبر في جميع الحالات ، والوصايا كثيرة وهو بها عارف ، والله تعالى يلهمه الرشيد والمعارف ١ .

كان رئيس اليهود يسمى الناغد في بادىء الامر ثم شاع استعمال الرئيس . وقد كان ثمة مقدم لطائفة السامريين الذين كان عددهم في دمشق لا بأس به ، لكن رئيسهم كان في مدينة نابلس بفلسطين . وقد كانت واجبات رئيس اليهود توضح في مرسوم التعيين وهي تشبه وظائف البطرك .

فالبطرك والرئيس كان لهما اعوان على مراقب متفاوتة . فالاول كان يعتمد على الاساقفة والكهنة ، اما اعوان الثاني فكان منهم البرناس الذي كان يجمع الصدقات ، والمقدمون والديان (المراقبان) والحزان وبيت الدين (القاضي) ، وكان كل يقوم بواجباته على نحو ما نص عليه ناموس اليهود .

ولم يكن البطرك او الرئيس مسؤولين عن جمع الجزية : فقد كانت هذه تدفع الى موظفي الدولة رأساً . الا انه كان من الضروري ان يطلع رجال الحكومة على التطورات التي تجري في الطائفة ، في سبيل تعيين المبالغ الواجب دفعها . لذلك كان على رؤساء المسيحيين واليهود والسامريين ان يعدوا الرقاع المفصلة

١ - صبح الاعشى ، ١٢ : ٤٢٥ - ٤٢٦ .

المحتوية اسماء المقيمين في مناطقهم واسماء الطارئين عليها واسماء المولودين والمتوفين والتازحين والذين اعتنقوا الاسلام . هذه الرقاع كانت تقدم الى شاد الجوالي ، الذي كان عليه ان يتشدد في الحصول عليها .

وقد ترتب على منح هذه الادارة الذاتية للطوائف الدينية المختلفة حلّ بضع من المشكلات الادارية ، ويسر ذلك لها ان تطور مجتمعا داخليا . على ان هذا التنظيم شجع الانطواء الديني والعنصري ، الا انه ، من الناحية الاخرى ، مكن للحاكم ان يهتدي الى تلك الطوائف بيسر عندما يحتاجها ، بقطع النظر عن الباعث الى تلك الحاجة .

. . . .

وكانت الاسواق والصناعات هي التي تستأثر بعناية الدولة في ايام المماليك . فقد كانت دمشق مدينة كبيرة ، ومن ثم كان توفير الحاجات الضرورية لسكانها امراً هاماً . كان الموردون مبدئياً من سكان المناطق المجاورة ، لكن البضائع غير القابلة للتلف ، كان يحملها التجار من اماكن بعيدة ، بما في ذلك التجار الاجانب . ولم تكن الاسعار تتوقف على العرض والطلب فحسب ، بل كانت ثمة عوامل اخرى تتعلق بأساليب البيع واختلاف الموازين والمكاييل وتنوع التقود المستعملة . ذلك ان دمشق ، وقد كانت

متاجرها تأتيها من اماكن بعيدة ، كان فيها ما لا يقل عن ثلاثة انواع من المكاييل للحيوب وفيها اثنان للزيوت والسوائل الاخرى واربعة اصناف من المقاييس . يضاف الى ذلك ان دمشق كانت تستعمل ثلاثة انواع من النقود .

فقد سار المماليك على الخطة التي اتبعتها الدول الاسلامية من قبل واتخذوا نقدين الواحد اساسه الذهب ووحده الدينار (١,٤٥ دولاراً) وكان دوماً نادر الوجود والثاني قاعدته الفضة ووحده الدرهم (٠,٠٧ من الدولار) وهو الذي غلب وجوده واستعماله . وقد اختلفت نسبة الاول الى الثاني بنسبة وجود الفضة في الدرهم : وكانت خير الدراهم النقرة وفيها الثلثان من الفضة والثلث الواحد من النحاس ، وكان عشرون درهماً من النقرة تساوي عادة ديناراً واحداً . وقد سك المماليك الفلاس ، وهو نقد نحاسي كان كل ٤٨ منه تساوي درهماً ، لكنه لم يعمر طويلاً لان قيمته قدننت بعد وقت قصير . وقد كان ثمة دينار آخر كانت تحسب بموجبه مكافآت رجال الجيش ، وان لم يستعمل كنقد في واقع الامر . وكان اربعة انواع من النقد الاجنبي شائعاً استعمالها في دمشق وهي : الافرنقي (ولعله نقد فرنسي يساوي ١٧ درهماً او ١,١٩ دولاراً) ، والذهب البنديقي (يساوي ١,٤٠ دولاراً) ، والدوقة الفضية (٠,١٤ من الدولار) والبرنثة التي تساوي عشرة دراهم (٠,٧٠ من الدولار) .

ومن ذا الذي كان اليه النظر في مثل هذه النشاطات وما اليها ؟ ليسمح لنا القارئ بان نذكره بان بعض الاسواق ، مثل سوق الخيل وسوق الرقيق ، وبعض الصناعات مثل السكر والحديد ، كان لها مشرفون وكان هؤلاء تعيينهم الدولة . لكن العبء الحقيقي في الاشراف على الاسواق والتجار كان يقع على كامل المحتسب .

ادخل اليونان الى مدن الشرق الادنى وظيفة كان صاحبها يسمى امين السوق . كان يدخل في نطاق واجباته التأكد من ان ما يباع في السوق جيد وان المكاييل والمقاييس المستعملة صحيحة . وقد استمرت هذه الوظيفة ايام الرومان والبيزنطيين ولعل المسلمين ورثوها منهم بعد الفتح ، مع ما ورثوه من مناصب ادارية متنوعة . ويبدو ان المدن السورية استمرت تستعمل هذه الوظيفة ، لكن منذ القرن الرابع (العاشر) او الخامس (الحادي عشر) ، اصبحت الوظيفة دينية المعنى والغاية ، شأنها في ذلك شأن وظائف كثيرة غيرها .

وقد حدث تطور آخر يتعلق بالمحتسب بعد القرن الخامس (الحادي عشر) ، وهو ظهور عدد كبير من الكتب التي كانت توضح طبيعة الوظيفة الشرعية والدينية ، وتبين ما يجب ان يتحلى به من يتولاها ، وتعين واجباته . وقد كان المحتسب ، ايام الايوبيين والمماليك ، واحداً من اوسع موظفي الدولة نفوذاً ،

لانه كان يراقب الحركات التخريبية والاشخاص المرقاب بهم . ولم يكن محتسب دمشق ليشذ عن ذلك ، الا في ان مسؤوليته كانت اكبر .

كان المعين لهذا المنصب يختار بدقة : يجب ان يكون فقيهاً عارفاً بالشريعة تقياً نظيف القلب دقيقاً صبوراً عارفاً بوسائل اهل الصنائع وطرق غشهم . وكانت واجباته متعددة ؛ كانت له دكة في السوق ، وكان يظل قريباً من الاسواق ، يركب خلالها ويقاچىء التجار نهراً وليلاً . وكان اعوانه وغلماؤه يرافقونه في غدواته وروحاته . وكان يعين عرقاء لمباشرة الاسواق (وقد كانوا في الواقع رؤساء التجار ، اذ انه كان لكل صناعة او تجارة سوقها الخاص في الغالب) . ومع ان اكثر اعمال المحتسب كانت تتم في الاسواق ، فما اكثر ما كان يتفقد المساجد ليتأكد من ان المشرفين عليها حافظوا على نظافتها وان الذين يفقدون عليها يحسنون استعمالها . وكان عليه ان يراقب الازقة الموحشة خشية ان يسيء بعض الرجال والنساء استعمالها للاجتماع او الالتقاء .

وكان على المحتسب ان يعنى بنظافة الاسواق والشوارع ، وان يتأكد من ان المتاجر لا ترعج المارة . وكان يحمي الجمهور من ان يقدم الباعة له الطعام الرديء او يفشوه بالكيل والميزان ، ومن تجار النقود الزائفة والمحتكرين ، وان

يحمي الاطفال من الضرب على ايدي معلمهم ، ومن تزوير
الاطباء والكحاليين والجراحية والصيدلة . وكان يضع اصحاب
الصناعات التالية تحت المراقبة المباشرة او غير المباشرة وهم :
الجزارون وقلادة السمك وطهاة الحلوى وصناع النقانق والحاكة
والخزافون وصناع الابر وباعة الحناء والصناع في معاصر السيرج
وصناع المناخل والدباغون واللباديون وصانعو الحصر ويأتعو
الحلى وتجار الارز وسقاة الماء .

فالمحتسب كان موظفاً كبيراً في الدولة ، وكانت واجباته
تقوم على اساسين : اولهما انه عهد اليه بحماية الجمهور من الغش
والظلم ، وكان عليه ان يستوثق من ان الذين يحملون الحاجيات
والبضائع الى المدينة لا يعترضهم التجار المحليون خارج الاسوار ،
فيعتدون ما معهم بالثمن البخس ليبيعه فيما بعد بالثمن الفاحش .
فالبيوع جيمها كان يجب ان تتم في السوق وعلى ايدي دلال
وباشراف اعوان المحتسب . ومع ان المحتسب لم يكن له ان
يسعر الاشياء ، فانه كان يستطيع ان يحول دون الباعة والاسعار
الفاحشة . وكان يتوجب عليه ان يتأكد من ان القمح والدقيق
والخبز متوفرة للاستهلاك . لكن يجب ان نذكر ايضاً ان المحتسب
كان يحمي الحكومة (وهذا هو الاساس الثاني) . فالصناع ، وهم
ما يمكن ان يسمى اهل الطبقة الوسطى او ما الى ذلك ، كانوا تحت
اشرافه ، اي اشراف الحكومة . ويمكن تفهم هذا الامر اذا
تذكرنا ان هذه الفئة من السكان كانت هيئة لان تتأثر بتعاليم

الشيعة والاسماعيلية ، الامر الذي كان مدعاة للقلق في دولة سنية .

وكان ثمة مصالح لم تخضع لاشراف المحتسب . فقد اشرنا الى الاسواق والمصانع التي لم تكن تحت اشرافه ، ولنصف الآن ان التعليم العالي لم يكن من اختصاصه ايضاً . فالاولى كان لها نظارها والتعليم كان يقع على كاهل قاضي القضاة ، ولم تكن الحكومة قلقة من هذه الناحية . ذلك ان الصناعات التي كانت يجب ان تكون تحت مراقبة شديدة هي الصناعات الحرة والاقبل اهمية .

وكان للمحتسب ان يوقع بعض العقوبات ، خاصة اذا كانت الشرطة تحت اشرافه ، لكن ذلك كان لا يأتي الا بعد التعزير مرات متعددة . ويبدو انه في هذه المسائل كان المحتسب يقوم بعمل قاض في قضايا ، لم تكن تستحق نظر المحكمة ، ولو انها اجرامية ، وكان بطبيعة الحال ، يطبق احكام الشرع .

٧ الحَيَاة الفِكرِيَّة

كان الفاطميون ، في نهاية القرن الخامس (الحادي عشر) ، قد احتلوا جزءاً كبيراً من فلسطين وسورية ، وكان التشيع قد انتشر في جزء كبير من البلاد . وقد اصاب الدول الاسلامية بعض الخذلان السياسي لما اتبع للصليبيين اقامة الدويلات اللاتينية في سورية ولبنان وفلسطين في القرن نفسه والقرن الذي تلاه . الا ان ردة الفعل الاسلامية جاءت في القرن السادس (الثاني عشر) : بدأها زنكي ودفع بها الى الامام نور الدين ثم تمكنت الجيوش الاسلامية من الانتصار على اللاتين في معركة حطين سنة ١١٨٧/٥٨٣ بقيادة صلاح الدين الايوبي .

كان زنكي ونور الدين وصلاح الدين سنيين ، وانتعاش الاسلام على ايديهم كان معناه احياء السنة . فقد روى ابو شامة ان نور الدين نصر السنة في حلب وازال الزيادة من الأذان وضيق على الروافض . وقد قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ١١٧١/٥٦٦ واعترفت مصر وسورية بخليفة بغداد . واندفع آل زنكي والايوبيون في تأييد السنة كما انهم لم يتورعوا عن التضييق على الشيعة ما وسعهم ذلك : فانشئت المدارس لتعليم السنة ، واعيد منصب المحتسب . وسار المماليك على نهج

اسلافهم فأتموا الحملات العسكرية والسياسية ضد الصليبيين و انتهوا الى استرجاع ديار الشام منهم ، فضلاً عن انهم انشأوا عدداً اكبر من المدارس ، ونظموا الحكومة ، وشددوا الخناق على الشعب ، وفرضوا مراقبة دقيقة على مرافق الحياة جميعها ، وقادوا الحملات ضد النصيرية ، وشادوا المساجد على الاراضي التي انتزعت من اصحابها .

كان صلاح الدين وخلفاؤه على المذهب الشافعي الذي اصبحت مع الاشعرية ، وكأنه المذهب الرسمي للدولة . وكانت بيبرس اول من اعترف بالمذاهب السنية الاخرى اذ عين قاضي قضاة لكل من المذاهب الاربعة في القاهرة اولاً ثم في سورية . وهكذا انتصرت السنة نهائياً اذ انها ضمنت تأييد السلطة لها ، كما كانت هذه بحاجة الى تأييد العلماء .

وكانت حركة اخرى ذات اثر كبير في الفترة التي نتحدث عنها وهي التصوف . وكان التصوف في اصله تعبيراً عن الرغبة في ايجاد الصلة بين الخالق والمخلوق بواسطة التقوى والتقشف ، الا انه تطور تدريجاً الى حركة كان لها اثر بعيد في الفكر الديني في الاسلام . يقول احد الكتاب في ذلك : « كان الفساك طلائع الحركة ، وقد عرفوا في الجزيرة والعراق وفلسطين وسورية وخراسان ، وكان من الفضائل التي يتحلون بها ، والتي جعلوها تاموساً لحياتهم ، الزهد والاعراض عن الثروة والجاه .

كان النساك سلبين في موقفهم من الحياة وكانت حياتهم خلواً من الفرح . لكن لم يلبث الدفء ان وجد سبيلاً الى حياة الكثيرين من النساك - وكان دفئاً ينبع من نور ينفذ الى الاعماق وانطلاقاً من روعي الى الاعلى . من بغداد جاءت الجذوة الاولى ، وظلت مصدر الوحي مدة طويلة . وفي واقع الامر فان بغداد لم تزد عن كونها حافظت على دور القيادة الاول في الادب والفقه والشرع والفلسفة .

وقد ازداد عدد المتصوفة ، وتأثروا بالتيوصوفية اليونانية والهندية والمسيحية وغيرها ، بحيث انتهى الامر بما كان من آراء فردية في التصوف ان اصبح تدريجاً نظريات ونظماً لكل مريدوه ودعاته ، وهي امور لا يتسع المقام لها هنا .

وكان آخر ما اصاب التصوف من تطور هو قيام الطرق التي كان من اكثرها اصالة القادرية (انشأها في بغداد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١/١١٦٦) ، والسهروردية (انشأها السهروردي المتوفى سنة ٦٣١/١٢٣٤) ، والشاذلية (نشأت في شمال افريقية على يد الشاذلي المتوفى سنة ٥٥٦/١٢٥٨) وهي اولى الطرق المغربية ، والمولوية (انشأها جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢/١٢٧٣ في تركيا) ، والتي يعرف اقباعها احياناً باسم الدراويش الراقصين . من هذه الفرق الاربعة وكثير غيرها قفرعت عشرات من الطرق .

ولما كان في التصوف بعض من التعاليم التي لا يقبلها العلماء من اهل السنة، فلم يكن غريباً ان يثير المتصوفة غضب العلماء، الذين اتهمهم بالشرك والكفر . وقد لاحظ واحد من المؤلفين « ان الفرق الاساسي بين موقف العلماء وموقف المتصوفة هو ان الاولين رأوا في العلم بالقرآن والحديث الطريق الوحيد لادراك الله وقلبي الهدى لاتباع طريقه ووصاياه ، بينما حسب المتصوفة المعرفة سبيلاً يؤدي الى الغاية ذاتها . والمعرفة ، كما فهمها المتصوفة ، لم تكن تقول بالتغاضي عن اركان الاسلام ، بل انها وضعت النبرة على التجربة الشخصية واخذت تدريجاً بالاعتراف بالاحوال والمقامات التي كان على الصوفي ان يختارها في سبيل تحقيق معنى معرفة الله . فالصوفي كانت تمر به احوال وأوضاع روحية في تنقله في طريق الرحلة العلوية من مقام الى الذي يليه . وقد كان هذا الطريق طويلاً ملتوياً مضمناً مرهقاً وفيه خمس واربعون مرحلة من التوبة الى الشوق للبقاء مع الله دوماً . ومن نافل القول ان قلة من الناس اعطي لهم ان يبلغوا الغاية من هذه الاهداف . ولكن احراز بعض النجاح على الاقل ، على هذه الطريق ، كان يقرب الانسان من الله اكثر مما يقربه التفسير الشرعي ، او على الاقل هكذا قال المتصوفة .

وقد عرف التصوف عالمًا كبيراً اتيح له ان يجمع على اقل حال في تفكيره شخصياً بين الفكر الصوفي والفكر السني ، وهو الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥/١١١١) الذي كان من كبار علماء

عصره ان لم يكن اكبرهم . وقد قطع على نفسه عهداً بان يثمر من بالتصوف عملياً . وكانت النتيجة مدمسة : لم يكتب الغزالي بقبول التصوف ، بل نصب نفسه للدفاع عنه . وقد كان هذا اكبر فتح للتصوف . وقد روى الغزالي قصة رجوعه الى الصواب في ترجمته الذاتية المسماة « المنقذ من الضلال » ، قال :

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت يهمني على طريق الصوفية ، وعلمت ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل . وكانت حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنازه عن أخلاقها المدمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لابي طالب المكّي — رحمه الله — وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ، والسلي ، وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع . فظهر لي ان اخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين ان يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ،

وأسبابها وشروطها ، وبين ان يكون صحيحاً وشبعاناً .
وبين ان يعرف حد السكر ، وانه : عبارة عن حالة تحصل
من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين
ان يكون سكراناً . بل السكران لا يعرف حد السكر ،
وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء . والصاحي
يعرف حد السكر ، وأركانه ، وما معه من السكر
شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة ،
وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فاقد الصحة . كذلك فرق
بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين
ان يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلت يقيناً انهم ارباب الاحوال ، لا اصحاب الاقوال .
وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته . ولم يبق الا
ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وكان قد حصل معي - من العلوم التي مارستها ،
والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية
والعقلية - ايمان يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي ،
لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب ، وقرائن ، وتجارب لا
تدخل تحت الحصر تفاصيلها .

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع لي في سعادة الآخرة
الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى . وانت رأس ذلك
كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا : بالتجافي عن دار
الغرور ، والالتابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على
الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالأعراض عن الجاه ، والمال ،
والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي : فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد
أحدثت بي من الجوانب . ولاحظت اعمالى - واحسنها
التدريس والتعليم - فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ،
ولافعة في طريق الآخرة . ثم تفكرت في نيتي في
التدريس : فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى . بل باعنها
ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت : فتبينت اني على شفا
جرف هار ، واني قد أشفيت على النار ، ان لم أشتغل
بتلافي الاحوال .

فلم أزل اتفكر فيه مدة ، وانا بعد على مقام الاختيار .
أصم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك
الاحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأآخر
عنه أخرى . لا تصدق لي رغبة في الآخرة بكرة ، الا
وتحمل على جند الشهوة حملة فتفتريها عشية . فصارت
شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان

ينادي : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين
يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل
رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟
وان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فعند ذلك
تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، اياك ان
تطاوعها ، فانها سريعة الزوال . فان أذعنت لها وتركت
هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير
والتنقيص ، والامن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما
التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعادة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي
الآخرة ، قريباً من ستة اشهر أولها : رجب سنة ثمان وثمانين
وأربعمائة . وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى
الاضطرار : اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن
التدريس ، فكنت أجاهد نفسي ان ادرس يوماً واحداً تطيباً
لقلوب المختلفة اليّ ، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا
استطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً
في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومראה الطعام والشراب ،
فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لي لقمة . وتعدى الى
ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ،

وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا
سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بمجزي ، وسقط بالكلية اختياري :
التجأت الى الله تعالى التبعاء المضطر الذي لا حيلة له .
فأجابني الذي يحيب المضطر اذا دعاه . وسهل على قلبي
الاعراض عن الجاه ، والمال ، والاولاد ، والاصحاب^١ .

وقد ترتب على هذه النقطة ان اوجد الغزالي للعواقف الباطنية
الداخلية مكاناً في مجال الاسلام الرسمي ، فكان جنباً الى جنب
مع الشريعة والكلام . الا ان الغزالي جعل التصوف سنياً ، لان ما
قبَّله من التصوف لم يكن التصوف المتطرف . وقد ارتأى ا. ج.
آربري انه منذ ايام الغزالي اصبح بإمكان نوع هادىء من التصوف
ان يحتل مكاناً بين العلوم الاسلامية . الا ان هذا القول يقابله
استثناءات متعددة ، كابن تيمية ، عالم دمشق في ذلك العصر ،
الذي كان شديد الحملة على التصوف . ولنا الى هذا الموضوع عودة.

كان التصوف الاسلامي ، في القرن السابع (الثالث عشر) ،
قد كون ثيوصوفيته الخاصة المبينة على اساس فكرة الكلمة ،

١ - المنقذ من الضلال ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٢

ص ٨٨ - ٩١ .

والتي أصبحت فيما بعد فكرة الحقيقة المحمدية . وقد كان لصوفيين كبيرين الفضل في نشرها وهما : ابن الفارض (المتوفى في القاهرة سنة ٦٣٣/١٢٣٥) وابن عربي (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨/١٢٤٠) . وكانت دمشق بين القرنين السابع (الثالث عشر) والتاسع (الخامس عشر) مركزاً هاماً لناحيتي التفكير الاسلامي : السنة والشريعة من جهة والتصوف من جهة اخرى ، وكانت كفة الناحية الاولى ارجح في غالب الاحيان .

وقد كانت ثمة عوامل كثيرة ادت الى ذلك ، منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقعة من العالم الاسلامي . لكن يجب ان نذكر الآن ان خطر الغزو المغولي ، الذي تحقق لما احتل هؤلاء بغداد ، حمل كثيرين من العلماء على الهجرة من العاصمة العباسية متجهين غرباً ، وكانت دمشق المكان الطبيعي الذي يلقون عصا التسيار فيه . كما ان الرعاية التي كان آل زنكي والايوبيون وبعض سلاطين المماليك يسبقونها على العلماء ، جذبت كثيرين منهم فانتقلوا من شمال العراق الى دمشق . فأسرة ابن تيمية انتقلت الى دمشق وعالم المستقبل كان لا يزال طفلاً ، لكن اياه وجده كائناً من العلماء المرموقين . ويبدو ان القاهرة لم تجذب اهل الفكر دوماً في تلك العصور . فابن عربي تركها بعد ان اعتدي عليه اكثر من مرة ، وابن خلدون رضي بالبقاء هناك

مرغماً . اما دمشق فكانت ذات جاذبية خاصة . وفضلاً عن ذلك فان عدداً من العلماء هجر فلسطين ، وهي تحت حكم الصليبيين ، الى دمشق مثل بني قدامة ، الذين انشأوا الصالحية . وقد ظلت بغداد مركزاً للعلم ، لكن دمشق سبقتها .

تجمع لدينا اسماء ١٣٥ عالماً قضوا حياتهم ، ارجزاءاً منها ، في سورية ، وكان غالبهم يعيشون في دمشق . وقد امكن تصنيفهم على الشكل التالي :

٢٦	الفقهاء
٢٣	المفسرون والمحدثون
٥	المتصوفة
٣٢	اهل النسمو والادب والشعراء
٢٨	المؤرخون والجغرافيون
١٤	الاطباء والعلماء والفلكيون
٤	الموسوعيون
٣	مؤلفون متفرقون

فاهل الاصناف الثلاثة الاولى ، اي الذين ألفوا في الموضوعات الدينية ، وعددهم ٥٤ عالماً ، يكونون ٤٠٪ من مجموع العلماء .

فإذا انتقلنا الى الكتب وجدنا أن ٩١٨ مجلداً وضعت في
الفترة نفسها ، فإذا وزعناها موضوعات وجدناها كما يلي :

٢٧١	الفقه
١٦٤	التفسير والعقيدة والحديث
١٥٨	التصوف
١٣٥	اللغة والادب والشعر
١٢٣	التاريخ والجغرافية
٥٢	الطب والعلوم والفلك
٤	الموسوعات
١١	مؤلفات متفرقة

والكتب الموضوعية في الشؤون الدينية هي ٥٩٣ وقولف
٦٥٪ من مجموع ما ألف . ولعله من الخير أن نضيف الملاحظ
التالية :

١ - نجد أن الكثير من الدواوين يدخل في عداد الكتب
الدينية إذا كان الموضوع ذكر الله ومدح الرسول .

٢ - ثمة عدد من الكتب الدينية يتكون من عدد من المجلدات ،
بينما الكتب العلمية قصيرة في الغالب . فالجواب الصحيح وفتاوى
ابن تيمية وتفسير ابن كثير ، على سبيل المثال ، يقع كل منها في
مجلدات عدة .

٣ - ان عدداً كبيراً من المحدثين والقراء اقتصر عملهم على التعليم في المساجد والمدارس لكنهم لم يؤلفوا كتباً . وهؤلاء يجب ان يذكروا .

واذا تذكرنا الكتب التي فقدت بالمرّة فنحن محقون في اعتبار النتاج الادبي في هذه الفترة ضخماً وممتلئاً نشاطاً . ولو تفحصنا بعض ما كتب دفاعاً عن الاسلام او ما تعرض للموضوعات التي لا تدخل في نطاق السنة او التي تتحدث عن غير المسلمين لاقضح لنا ان المؤلفين كانوا على شيء كثير من الحيوية .

والفترة عرفت القليل من التأليف ، باستثناء كتب قليلة في الطب والفلك . وثمة كتابان في المنطق واثنا عشر كتاباً في الجغرافية وكتاب واحد عن الاستراتيجية والتعبئة . وقد اتبع الطب بسبب رعاية نور الدين وصلاح الدين وخلفائهما . فضلاً عن ان الطب كان ذا فائدة عملية ولم يكن له نصيب من التدخل في امور السياسة . وعلى غرار ذلك كانت كتب الفلك وما اليه في الغالب تعنى بالناحية العملية من هذه القضايا ، مثل التوقيت وعمل الاسطرلاب .

هل من الممكن تفسير هذه الامور كلها ؟

كانت الدولة تشرف على التعليم العالي . وكان هدفها حماية نفسها ، وكان هذا هو الغرض الذي قبل علماء الدين والمفكرون

الاضطلاع به . فلم يكن لحرية الفكر مكان في نظام التعليم في تلك الفترة ، بل انه لم يكن لها مجال في الحياة الفكرية عامة . ويروي ابو شامة ان صلاح الدين لم يكن يحب الفلاسفة او اولئك الذين كانوا يخالفون المتبع المألوف ، حتى انه امر بقتل السهروردي (المقتول) . وقد كان هذا سابقة خطيرة استنبا هذا الرجل الذي كان ينظر اليه خلفاؤه بعين الاكبار .

كانت التربية اساسها فهم النظام الفقهي الذي بذل العلماء جهداً في اقامته . ومن ثم فقد ضاقت حلقات المتعلمين واقتصرت موضوعات التعليم : ويلاحظ الباحث ان الكثير من كتب العقائد لم تكن اكثر من شروح وتفسير لكتاب واحد او ذبول له . ومن حيث ان المجتمع الاسلامي لم يتلق ، في القرن السابع (الثالث عشر) او بعده ، تيارات فكرية من الخارج ، فان الحياة الفكرية لم تعرف الحوافز او البواعث التي تحملها على الانطلاق . ذلك ان التوازن الداخلي القائم وجد في الفقه المعاصر له ما يلزمه لسد حاجاته . وكان لا بد من ضغط خارجي لاحداث رد فعل يؤدي الى تبديل الوضع ، ومثل هذا الضغط لم يشهده العصر المملوكي .

شهدت الفترة التي اصطدم فيها الصراع بين المسلمين والصليبيين ازدهاراً في الشعر العربي . فقد زودت انتصارات نور الدين وصلاح الدين الشعراء بموضوعات لقصائدهم ، ولم يقصروا قط في

التغني بأعمال الأمراء الكبار . فابن عنين وابن الساعاتي امتدحا
اليوبيين مع ان الاول ذاق ألم التغني من دمشق ، وقضى مدة في
اليمن - لكن في بلاط واحد من اليوبيين .

وشعراء الفترة - اي في القرنين السابع (الثالث عشر)
والثامن (الرابع عشر) - الذين يمكن عددهم بين شعراء سورية
كثراً : فثمة ثلاثة وعشرون منهم . لكن نتاجهم الادبي لا يبلغ
مبلغ النتاج الشعري العربي القديم من حيث نوعه . ولعل ابن
نباتة اذيعهم صيتاً . ولد هذا الشاعر في ميفارقين سنة ٦٨٦/
١٢٨٧ وانتقل الى دمشق سنة ٧١٦/١٣١٦ ، لكنه رحل اخيراً
الى القاهرة وتوفي فيها سنة ٧٦٧/١٣٦٦ . وفي ديوانه الكثير من
شعر المديح ، ومن هذه القصائد ثمانية عشرة تبدأ بالطريقة
التقليدية من تذكر الاحبة والمرابع . وقد نظم ابن نباتة الموشح ،
الذي يزعم البعض ان ابن عربي نقله الى المشرق من الاندلس .
كما انه نظم الزجل ، وفي ديوانه نموذج من ذلك .

ويبدو ان الادباء في ذلك العصر احسوا برغبة اهل الفكر
في ان ينصرفوا الى الفقه وما اليه ، لذلك نجد ان ياقوت يعتذر
في مقدمة كتابه « ارشاد الاريب الى معرفة الاديب » بقوله :

واني لجد عالم ببغيض يندد ويزري عليّ . ويقبل بوجه
اللائمة اليّ . ممن قد أشرب الجهل قلبه . واستعصى على كرم

السجية ليه . يزعم ان الاشتغال بأمر الدين اهم . ونفعه في الدنيا والآخرة أعم . اما علم ان النفوس مختلفة الطبائع . متلوثة الزائغ . ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه . ودرس الذي يليه . وان الله جل وعز جعل لكل علم من يحفظ جملته . وينظم جوهرته . والمرء ميسر لما خلق ولست انكر اني لو لزمت مسجدي ومصلاي . واشتغلت بما يعود بعاقبة دنيائي . في أخراي أولى . وبطريق السلامة في الآخرة أخرى . ولكن طلب الأفضل مفقود . واعتماد الأخرى غير موجود . وحسبك بالمرء فضلاً ان لا يأتي محظوراً . ولا يسلك طريقاً غيراً^١ .

كان ابن عربي من كبار متصوفة اواخر القرن السادس (الثاني عشر) وأوائل القرن السابع (الثالث عشر) ، وقد صرف عشرين سنة او يزيد من حياته في دمشق ، حيث وضع قسماً كبيراً من خير مصنفاته . ولد ابن عربي في مرسية من اعمال الاندلس سنة ١١٦٥/٥٦٠ وتلقى علوم الحديث والفقه في لشبونة واشبيلية وسبته واطال التجوال في شمالي افريقية . ومع انه كان قد تعرف الى الصوفية من قبل ، فانه انضم الى المتصوفة في تونس . ويبدو ان هذا الاتجاه الجديد في حياته هو الذي جعله

١ - ياقوت ، ارشاد الاديب ، القاهرة ، مطبعة هندية ١٩٣٢ ،

ج ١ ص ٧ .

على الاتجاه شرقاً ، اذ ان عصر الموحدين لم يكن يتقبل مثل الآراء التي كان ابن عربي يقول بها . فضلاً عن انه ، مثل غيره من اهل الورع من المسلمين ، رغب في اداء فريضة الحج . وقد كان بلغ الثامنة والثلاثين من عمره لما بدأ رحلته الى المشرق .

ولم تكن اقامته في مصر هينة ، فقد هدد في حياته غير مرة ، لكن مكة راقته وطابت له صحبة اهلها والواردين عليها من الحجاج ، فاقام هناك ثماني سنوات عكف اثناءها على التأليف والتدريس ، وقد تم له اثناءها اقامة مذهب التأمل . وقد زار فيها بعد بغداد التي اعجبت له لكنه لم يقيم فيها طويلاً — ولعله احس بالانحطاط المهددة بالعاصمة العباسية من المشرق . وبعد تجوال قصير في آسية الصغرى القى عصا الترحال في دمشق ، وفيها توفي سنة ٦٣٨/١٢٤٠ .

حظي ابن عربي في دمشق بكل ما يمكن ان يطمح فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية اولي الامر ، وكان في ذلك خير له ولنا . وكان بين الذين افاءوا عليه الرعاية ابن الزكي قاضي القضاة ، الذي كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه . وكان جو دمشق الحر نسبياً ، اذ اقورن بالقاهرة والغرب الاسلامي ، مما راق ابن عربي فحمله على العمل الفكري الجدي — اذ انه اتم وهو في دمشق « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » .

وقد خلف لنا ابن عربي عدداً ضخماً من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠ و ٧٠٠ ، وقد سلم منها ما يربو على المائتين . لا شك ان بعضها يتألف من اوراق مجموعة ، لكن الكثير منها يتكون من مجلدات عديدة ، مثل الفتوحات والفصوص . ولم يكن ابن عربي كاتباً فحسب ، ولكنه كان شاعراً على نحو ما نعرف من شعره الذي رواه صاحب نفح الطيب .

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا هو ماذا كان مذهب ابن عربي ، هذا الصوفي الكبير . لقد جمع ابن عربي في اطار تأملاته الجامع علوم الاسلام ، ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وضعه الفقهاء والفلاسفة السنيون والمتصوفة القدماء والمحدثون فحسب ، بل كان مطلعاً على ما عند المخالفين لهم مثل المعتزلة والقرامطة والاسماعيليين . ومذهبه ، على ما فيه من اتساع وتنوع ، يتكشف عن ما عرفته مصادره جمعاء من تأملات وتعايير . ومن ثم فان الاشارات الغامضة تزداد تعقيداً بسبب الصعوبة التي تواجهنا باستمرار ، وهي الصعوبة الناشئة عن استعمال التعابير الفنية المتناقضة .

ولا تليح لنا الفسحة القصيرة التي بين ايدينا اكثر من ان نشير الى بعض من آراء ابن عربي المتشعبة ، الا ان الملاحظ التالية قد توضح موقفه من اسلافه وتأثيره في الذين تلوه من المتصوفة .

١ - الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات . وفي الله وحده يتحد الوجود والكيان .

٢ - الكون له وجود نسبي إما واقعي أو تصوري . وهو في الوقت ذاته وجود دائم وعدم موقت . فالوجود الدائم هو في علم الله اما العدم الموقت فهو خارجي بالنسبة لله .

٣ - ان الله منزّه ومشبه ، ذلك بان التنزيه والتشبيه مظهران اساسيان للحق على ما يدركه الانسان . فالحق الذي يقوم على التنزيه هو الخلق الذي يقوم على التشبيه ، مع ان الخالق يتميز عن المخلوق .

٤ - ان الوجود ، بعيداً عن الله ، يقع بإرادة الله ، وهو خاضع للنواميس المتعلقة بالاشياء الكائنة : ويتم ذلك بواسطة الاسماء الحسنی او الآراء الكلية .

٥ - كانت الاشياء في العالم الظاهري ، قبل ان تصبح موجودات ، قائمة في العقل الالهي كاعیان ثابتة ، ومن ثم فقد كانت شيئاً واحداً مع الكيان والوعي الالهي .

٦ - ليس ثمة شيء اسمه اتحاد بالله ، بمعنى ان يكون المرء واحداً مع الله ، ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو ان الصوفي واحد مع الله .

٧ - ان الاصل الخلاق الهجي العاقل في الكون او العقل
الاول هو الحقيقة الحمديّة المسهاة ايضاً حقيقة الحقائق . هذا
الاصل يظهر على او في صورة الانسان الكامل .

٨ - كل نبي هو حقيقة الله ، والحقيقة هي محمد سيد الانبياء .
وهذه الحقائق جميعها تتقمصها الحقيقة الحمديّة .

٩ - الانسان الكامل هو مصغر الحقيقة . انه العالم الاصغر
الذي يعكس الصفات الكاملة للعالم الاكبر جميعها . وكما ان
الحقيقة الحمديّة كانت المبدأ الخلاق في الكون ، فان الانسان
الكامل هو علة الكون لانه تحقيق لرغبة الله في ان يعلن . ذلك
بان الانسان الكامل وحده هو الذي يعرف الله ويحب الله ويحبه
الله . فقد صنع العالم من اجل الانسان فقط .

وفي اسلوب ابن عربي كثير من التعقيد والغموض والاضطراب ،
مما يثير حفيظة القراء ويعجزهم . فهل يكون ذلك نتيجة طبيعية
لهذا المدى الواسع الذي امتد فيه تفكيره وتجاربه الروحية
وتأملاته ، ام انه تعمد هذا الاسلوب ليخفي عن معاصريه اموراً
ما كان لهم ان يقبلوها ، لكنه كان حريصاً على ان يودعها
القرطاس ؟ بعد هذا التلبيه فننقل الى القراء شيئاً مما كتبه ابن
عربي .

يقول ابن عربي في «فصوص الحكم» : «واذا كان الامر من هذا

الوجه ممتنعاً ، ولم تكن الشهادة الا في مادة ، فشهود الحق في
الفساء اعظم الشهود واكمله ،^١ . ولعلّ هذه العبارة تعيّننا على
فهم القصيدة التالية لابن عربي :

مرضي من مريضة الاجفان	عللا في يذكرها عللا في
هفت الورق بالرياض وثاحت	شجو هذا الحمام بما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادي	من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمسا فلما	أقلت أشرقت بأفق جناني
يا طولاً برامة دارسات	كم رأيت من كواعب وحصان
بأبي ثمّ بي غزال ربيب	يرتمي بين أضلعي في أمان
ما عليه من نارها فهو نور	هكذا النور نحمد النيران
يا خليلي عرجا بعناني	لأرى رسم دارها بعيناني
فاذا ما بلغت الدار حطا	وبها صاحبي فلتبكياني
وقفنا بي على الطول قليلا	تتباكى بل أبك بما دهاني
الهوى راشقي بغير سهام	الهوى قاتلي بغير سنان
عرفاني اذا بكيت لديها	تسعداني على البكا تسعداني

١ - ابن عربي ، محيي الدين ، قصص الحكم ، القاهرة ، دار احياء
الكتب العربية ، ١٩٤٦ ، ص ٢١٧ .

واذا كرا لي حديث هندی ولبنی وسليمی وزینب وعنان
 ثم زیدا من حاجر وزرودی خبّرا عن مراع الغزلان
 واندبانی بشعر قیس ولیلی وبمیّ والمبتلی غیلان
 طال شوقی لطفلة ذات نثر ونظام ومنبر وبيان
 من بنات الملوك من دار قرس من أجلّ البلاد من اصيهان
 هي بنت العراق بنت امامي وأنا ضدها سليل يمانی
 هل رأيتم يا سادتي او سمعتم ان ضدين قطّ يجتمعان
 لو ترانا برامة تتعاطى أكّوساً للهوى بغير بنان
 والهوى بيننا يسوق حديثاً طيّباً مطرباً بغير لسان
 لرأيتم ما يذهب العقل فيه بين والعراق معتقّان
 كذب الشاعر الذي قال قبلي وبأحجار عقله قد رماني
 «أياها المنكح الثرياً سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان»
 «هي شاميّة اذا ما استقلت وسهيل اذا استقلّ يمانی»^١

وما اكثر ما كان ابن عربي يشرح شعره ، على نحو ما نرى
 في القصيدة التالية :

١ - ابن عربي ، ترجمان الاشواق ، بيروت ، صادر ، ص ٧٨ - ٨٦ *

ما رحلوا يوم بانوا البزل العيسا الا وقد حملوا فيها الطواويس

فيها : بمعنى عليها . البزل : الابل المسمنة . رحلوا :
جملوا رحالها عليها . الطواويس : كناية عن أحبته . شبههم
بين لحسنين .

المقصد : البزل ، يريد الاعمال الباطنة والظاهرة ، فانها التي
ترفع الكلم الطيب الى المستوى الاعلى ، كما قال تعالى : « اليه
يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . والطواويس :
المحمولة فيها ارواحها ، فانه لا يكون العمل مقبولا ولا صالحا
ولا حسنا الا حتى يكون له روح مزينة عاملة او همة ، وشبهها
بالطيور لانها روحانية وكنى عنها ايضا بالطواويس لتنوع
اختلافها في الحسن والجمال .

وعلى هذا النحو سار في شرح سائر الابيات ^١ .

والايات التالية توضح لنا موقف ابن عربي من الحب بأسلوبه
المعنوي المجرد الجامع :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة
فرعى لغزلان ودير لرهبان

١ - المصدر نفسه ، ص ١٥ .

وبيت لاوثان وكعبة طائف
والواح قوراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب انى توجهت
ركائبه فالحب ديني وايماني^١

ووضع ابن عربي كتاب « الاجوبة اللائقة عن الاسئلة
الفاثقة » الذي تصور فيه نفسه يحيب سائلاً عن القضايا التي
تعارضه^٢ .

والفتوحات المكية « هو تجليات ابن عربي وتفسيره للكون
والعقيدة والروح وشؤون الحياة اجمالاً .

ويمكن تقصي المدى الذي تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في
اكثر من اتجاه واحد . فحتى اولئك الذين لم يقبلوا ، او تظاهروا
بانهم لم يقبلوا ، نظركه بالوهمية الكون كثيراً ما عبوا من معين
ابن عربي وخاصة آراءه في الحب . وحتى القاهرة ، التي اقضت
مضاجعه اثناء اقامته فيها ، وجدت فيما بعد الكثير عنده . ونجد
انه في نهاية القرن السابع (الثالث عشر) اصبح جماعة من
المتصوفة في القاهرة من اشد المؤيدين لآرائه . وحتى العلماء

١ - ترجمان الاشواق ، ص ٤٣ - ٤٤ .

٢ - ما يزال هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة India office بلندن .

حفزهم ابن عربي على العمل ، لانهم انصرفوا الى نقده ، وما
كان ذلك بالامر اليسير . وقد اختلف المفكرون والمؤلفون
المسلمون المتأخرون في تقييم آرائه بسبب تنوع ما حربه من
التجارب الروحية والتأملات وعمقها .

. . .

العلماء هم حماة الشريعة : هذه هي النظرة الاسلامية التقليدية
اليهم . وفي الفترة التي نتحدث عنها كان العلماء اصحاب نفوذ
كبير . فقد كانوا يحتلون الوظائف الدينية : فمهم القاضي
والمحتسب والمفتي والمدرس والامام والخطيب والقارئ ، وبذلك
استطاعوا السيطرة على التعليم ، وكان اليهم النظر في القضاء ،
واليهم تعود الفتوى . وكان ثمة عدد كبير من الوظائف الدينية
وقفاً عليهم . فكتاب الانشاء ونظائر المؤسسات المختلفة ،
كالبيارات والجيش ، كانوا من العلماء . والادب الرسمي الذي
تصدر اليه من تلك الفترة مطبوع بطابعهم .

وكان هناك من العلماء من لم يتولوا ايًا من وظائف الدولة ،
ومع ذلك كانوا يقرضون رأيهم على الدولة ، بسبب ما يتمتعوا به
من قوة الشخصية والخلق القويم ، ولأن الجمهور الذي عرف عنهم
العلم والاخلاص والحماسة احترمهم وايدهم .

وتكفيينا امثلة قليلة للدلالة على ذلك . فقد اصدر الملك

العادل تقوداً جديدة سميت قراطيس ، فانتقد اليوناني هذا العمل واتهم العادل بأنه كان يتوي غش التعامل بين التجار . فما كان من العادل الا ان الغى القراطيس . وكان سبط ابن الجوزي مستشاراً خاصاً للملك المعظم . وفي سنة ١٢٦٧/٦٦٥ عقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً في دمشق دعا اليه العلماء وطلب منهم ان يصدروا فتوى تسمح له بالاستيلاء على اراضي الغوطة ، ولكن الشهرزوري عارض في ذلك على اساس ان السلطان لم يكن له حق في الارضين . ونزل السلطان عند رأي العلماء . وقد تمكن ابن عبد السلام - وهو معاصر للظاهر - من الغاء الاذن ببيع الخمر ، وتقدم السلطان في مبايعة الخليفة ، واصر على ان يبيع الامراء المالك في سوق الرقيق بنفسه ، وتم له ذلك ، وانفق ما تحصل له على اعمال البر . وفي سنة ١٢٨١/٦٨٠ كان يبيع الخمر وبيوت الفسق يسمح بها لمن نال حظوة عند اولي الامر ، ولكن العلماء قاوموها ونجحوا في ابطالها .

وابن تيمية مثل حسن لتبيين اثر العالم المتين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع ، على ما يتضح من بضعة حوادث منتزعة من حياته . لما رأى الخطر المغولي المحدق بالبلد سنة ١٢٩٨/٦٩٧ ، تحدث الى الناس في شؤون الجهاد ، فكان حديثه اوقع في النفوس من اوامر السلطان . ولما احتل المغول دمشق بقيادة قازان ، كان ابن تيمية الذي حض ارجواش ، نائب القلعة ، على وجوب

الامتناع عن تسليمها . وقد ذهب ابن تيمية الى التنبك ، بصحبة
نفر من اعيان دمشق ، للقاء قازان والحصول على امان لاهل
المدينة . وبعد رحيل جيش قازان من دمشق طاف ابن تيمية
واقبائه على حوانيت الخمر يكسرون آنية الخمر ويهرقون
محتوياتها على الارض ، ويعزرون اصحاب الحانات . وقد رافق
ابن تيمية حملتين عسكريتين الى كسروان بلبنان في اوائل القرن
الثامن (الرابع عشر) . وقبل معركة شقحب (سنة ٧٠١ /
١٣٠٢) ذهب الى الجيش وتحدث الى الجند عن الوحدة والنصر
واستوثق من ان الامراء وغيرهم اقساموا على الاخلاص ، ووضح
لهم شرعية قتال المغول ، ولو ان هؤلاء كانوا مسلمين مثل اهل
سورية .

قدمنا هذه الامثلة لنوضح الدور الذي كان العلماء
يقومون به في الحياة العامة . فاذا اضعنا الى ذلك نشاطاتهم
الفكرية ، لا يتولانا العجب اذا نحن وجدنا ان حظهم في ارشاد
القوم وتوجيه قضاياهم المختلفة كان كبيراً .

وقد كانت دمشق في ايام المماليك تمتع بالعلماء ، فقد هاجروا
اليها من الجزيرة وبغداد وفلسطين ، وتقبلتهم دمشق مشجعة
واقاءة عليهم من خيراتها وامنها ، ومنحتهم الفرصة لينموا
اهتمامهم العلمي .

وكانت دمشق في القرن الثامن (الرابع عشر) شديدة العناية بالحديث . وانصرف عدد كبير من المحدثين الى الاحاديث يتوثقون من اسنادها ويصنفونها ويبدوونها ، وخاصة ان مئات من الاقوال كانت الى ذلك الحين قد نسبت ، اما مصادقة او تعمداً ، الى الرسول . وهكذا فان علم الحديث كانت له نهضة على ايدي فئة من ابرع من عرف علم الحديث في تاريخه - مثل الموفق والنووي والذهبي والسبكي وابن التقي وغيرهم . ولما كان علم الحديث لم ينفصل عن غيره من متفرعات الشرع والفقه ، فلم يكن غريباً ان ينبغ واحد في الحديث والفقه على السواء . على انه يتوجب علينا ان نتذكر بهذه المناسبة حقيقة واحدة هامة وهي ان علم الحديث كان دوماً واحداً بقطع النظر عن المذهب او المدرسة التي ينتمي اليها المحدث ، بينما كان الفقه يختلف تدارسه باختلاف المذهب . وهذا يوضح لنا السبب في ان مدارس الحديث ، سواء في دمشق وفي غيرها ، كانت للجميع ، بينما كانت مدارس الفقه مخصصة لواحد من المذاهب الاربعة .

وكان الحنابلة ذوي نفوذ وقوة واضحين في القرون السابع والثامن والتاسع (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) ، وقد كان للهجرتين اللتين ذكرا من قبل اثر في ذلك : هجرة جماعة ابن قدامة الذين تركوا بيوتهم قرب نابلس واستقروا في دمشق ، وبجيء اسرة ابن تيمية التي جاءت من حران في شمال

سورية . وقد ظهر في بني قدامة عدد من العلماء والدارسين الذين كانت اكبر خدماتهم العلمية جمع الفقه ووضع المصنفات الموسوعية فيه . واسرة تيمية منحت دمشق تقى الدين ابن تيمية (تو ٧٢٨/١٣٢٨) الذي لعله كان اكبر فقيه في ايامه . فهو يمثل الفئة الثانية ، بعد ائمة السنة الاربعة الاوائل ، التي يعود اليها الفضل في اعادة النشاط الى الدروس الاسلامية الشرعية ، وتصنيف بعض ما سبق للفقهاء ابن قدموه من آراء هامة ، وتطبيق المطلق الحديث على بعض القضايا التي لم تكن قد خطرت لاسلافهم من قبل . وقد يكون في الاشارة الى ابن تيمية وصحبه على انهم مصلحون بعض المبالغة ، ولكن اثرهم ، وخاصة اثر ابن تيمية نفسه ، يمكن ملاحظته في آراء المصلحين من المسلمين حتى يوم الناس هذا .

وكان التأريخ موضع اهتمام وعناية في هذه الفترة ، وقد صنفته فيه كتب قيمة . وقد كان الاخباريون الاوائل في الاسلام مغلقين على انفسهم بعض الشيء ، وكان الاسلام وتاريخه هو كل ما يهمهم ، وقلما عنوا بمن سبقهم من الاقوام او حتى بمعاصريهم من الامم الاخرى . اما مؤرخو العصر المملوكي فقد كانوا منفتحين . كانت كتاباتهم عن الاسلام والبلاد الاسلامية الا انهم كانوا قد ارتبطوا بمجاعات اخرى في الشرق والغرب وكولوا معها علاقات وثيقة وتعاملوا معها بشكل واسع . وقد جاء مؤرخو المماليك بعد ان

كان عدد كبير من الجغرافيين والرحالين قد درسوا اجزاء العالم وكتبوا عنها . فلم يكن بإمكان هؤلاء المؤرخين ان يتجاهلوا الاقوام الاخرى حتى ولو ارادوا ذلك . فضلاً عن ان بعضهم بذلوا جهودهم لتدوين تاريخ الحروب الصليبية اكبر نزاع مسلح بين المسيحية والاسلام . ولنا نغنى الآن بموقف المؤرخين ، ولكن المهم انهم تناولوا الموضوع بالكتابة . كانت آفاقهم اوسع . والذي نواه هو ان مؤرخي القرن الثامن (الرابع عشر) هم الذين ارشدونا الى كتابة التاريخ : لقد كان طليعتهم ابن خلدون . وقد قامت دمشق ومؤرخوها بدور كبير في هذا الاتجاه .

وقد ازدهرت في الفترة التي نتحدث عنها ايضاً المؤلفات الموسوعية التي شملت فنون العلم والمعرفة على انواعها : ففي الفقه وضع الموفق « المقني » ، وفي التاريخ ظهر ابن الاثير وابن الفرات والذهبي ، وفي الموسوعة بالذات صنف ابن فضل الله العمري كتاب « مسالك الابصار » . وهذا الكتاب ، وسنعود اليه فيما بعد ، في عشرين جزءاً فيه الجغرافية والتاريخ والجغرافية السياسية والادب على نحو ما عرفها العصر . فضلاً عن انه كان ، في زمنه ، دليلاً رسمياً للذين يعملون في وظائف الدولة .

ولعلته من الافضل لتوضيح نواحي الحياة الفكرية في ذلك

الوقت ان نضع امام القارىء تراجم مقتضبة جداً لبعض العلماء
والفقهاء الذين كانت حياتهم نموذجاً للعصر ، اذ ان ذلك من
شأنه ان يدخلنا الى الجو الذي عاش فيه هؤلاء الناس .

كان الموفق في العاشرة من عمره لما هاجرت اسرة بني قدامة
من فلسطين واستقرت في دمشق . وكان ابوه اول معلميه ، ثم
أخذ العلم عن بعض علماء دمشق . ورحل بعد ذلك الى بغداد
والموصل ومكة حيث لقي العلماء واخذ عنهم ، وكان قد بلغ
الثلاثين من عمره لما استقر في دمشق نهائياً ، وانصرف الى التعليم
والتأليف حتى وفاته سنة ١٢٢٣/٦٢٠ . وكان عدد كبير من
الطلبة يحضر دروسه ، بينهم جماعة بلغوا من العلم درجات
عالية . كان الموفق حنبلياً واشتهر بالفقه ، وخلف لنا «المغني»
وهو كتاب في الفقه في عشرة مجلدات . وميزة الكتاب هو ان
مؤلفه كان يقارن فيه بين نظرة الحنابلة وآراء غيرهم من اهل
السنة ، ومن ثم فالقارىء يجد فيه الفقه المقارن . وقد قيل عن
الموفق انه كاد ان يبلغ مرتبة الاجتهاد .

وستحدث عن ابن تيمية ، وهو فقيه العصر غير منازع ،
فيما بعد . اما الآن فلنشر الى فئة اخرى من الذين كان لهم باع
في ميادين العلم الاخرى : من هؤلاء الذهبي المصنوع (تو
١٣٤٨/٧٤٩) الذي صنف « تاريخ الاسلام » في سبعين قسماً

نخص كل قسم منه بعقد من السنين . وقد كان واسع المعرفة ضليعاً في علمه بالمصادر بحيث ان كتابه يمكن اعتباره من نوع الموسوعات التاريخية . وقد خلفه في كتابة التاريخ ابن كثير صاحب « البداية والنهاية » الذي وضعه في اربعة عشر جزءاً . وقد لجأ الاثنان - الذهبي وابن كثير - الى تلخيص من سبقهما في كتابة تاريخ القرون الاولى ، لكنها كانا يحسان ، وما يدونان اخبار زمانها ، انها يؤرخان لفترة فيها الكثير من الحركة والنشاط ، ومن ثم فقد انصرفا الى عملها باهتمام ، فخلقنا لنا ثروة تاريخية لا مثيل لها ، وخاصة ابن كثير الذي يرسم لنا صوراً حية للاحداث والماجريات بحيث نستطيع مرافقته يوماً فيوماً .

ويعتبر ابن فضل الله العمري (تو ٧٤٩/١٣٤٨) مؤلف « مسالك الابصار في ممالك الامصار » موسوعي دمشقي في عصر المماليك . ولقد كان ابوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية ، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة . وقد ولد العمري في دمشق حيث سمع العربية والفقه والحديث وتولى منصب القضاء فيها . واخيراً تأسى خطوات والده وجده فتوظف في ديوان الانشاء ، وهذا ما حفزه على وضع مؤلفه الضخم « المسالك » . والكتاب فيه بحث عن جغرافية الارض ، الا انه عندما يتكلم عن الجغرافية السياسية فانه يقصر بحثه على بلاد الاسلام (وهو يأمل ان يتحدث عن بلاد الكفار في مناسبة

قالية) . على ان الاكتفاء بهذا القول عن الكتاب فيه اجحاف ،
ذلك بان المؤلف يزودنا بالآخبار التاريخية المعاصرة وبالمعلومات
المتعلقة بالادارة والعلاقة بين السلطان ونوابه وامرائه . ويسهب
في تبين الامور المتعلقة بالضرائب وموارد الدولة والمكافآت
وحق الانتفاع بالارض وما الى ذلك . ووصفه للمدن ، وخاصة
القريبة ، واف ودقيق . واسلوبه يتفق مع روح العصر ، الا انه
لا يضحى بالدقة في سبيل زخرف القول . وفي الكتاب عدد
كبير من المراسم والاوامر السلطانية التي صدرت في اوقات
مختلفة ، وان لم يكن هو الكتاب الوحيد الذي يوردها . ولا
سبيل الى فهم الادارة المملوكية دون الاطلاع على كتاب
المسالك هذا .

وابن طولون الصالحى ولد في اواخر عصر المماليك وتوفي
سنة ١٥٤٦/٩٥٣ ، لذلك لم يتمتع برعايتهم مدة طويلة ، اذ جاء
موته بعد زوال امبراطوريتهم بنحو ثلاثة عقود من السنين .
ومع ذلك فهو من اهل ذلك العصر لانه ولد قبل الاحتلال
العثماني (١٥١٦/٩٢٢) باثنتي واربعين سنة . ولم تكن مؤلفات
ابن طولون شيئاً مبتكراً ، الا انه عالم من علماء تلك الفترة .
فقد قرأ القرآن وسمع الفقه والحديث ودرس التصوف (وهو
امر غير مألوف الا اذا كان المقصود الرد على المتصوفة) واللغة
والتاريخ والرياضيات والفلك والهندسة والطب . والكتب التي

وضعها ، وبلغ عددها سبعمائة ، شملت هذه الموضوعات كلها .
كان ابن طولون نموذجاً لعالم العصر — كان ذكياً فتعلم كل شيء
رآه ، وكان قادراً على هضم هذه المعرفة ، وتمكن من كتابتها
باسلوب مقبول . على انه لا يبدو انه وعى مشكلات الفترة
وقضاياها اذ انه لم يبد فيها رأياً خاصاً . الا ان الانصاف يقضي
بأن نقول بأن ابن طولون لم يكن الوحيد من مفكري عصر
المماليك الذين لم يعنوا الا بالتعلم والتدريس على الطريقة التقليدية
المألوفة .

على ان الرجل الذي ارتفع الى مستوى القضايا وحاول
معالجتها بمعرفة وصراحة ومواجهة المية هو ابن تيمية
(١٢٦٣/٦٦١ - ١٣٢٨/٧٢٨) . ولم تكن كتابته هامة فحسب ،
بل ان حياته كانت مثالا يحتذى ، فلم يكن يأبه الصعاب متى
اقتنع بانه على حق . ولذلك فافتنا نود ان نتحدث عنه بشيء من
التفصيل .

كان احد ابن تيمية قد بلغ السابعة من عمره لما رحلت
اسرته من حران في الجزيرة الى دمشق ، خشية تكرار الهجمات
المغولية . وقد اصبحت دمشق في القرن السادس (الثاني عشر)
مركزاً للفقه الحنبلي ، الامر الذي تقوى بعد سقوط بغداد سنة
١٢٥٨/٦٥٦ . ولما كانت أسرة احمد حنبلية ، فقد اتيح له من

اول الامر ، ان يأخذ العلم عن خير المدرسين الحنابلة في تلك
الفقرة . فالمدارس الحنبلية كانت قد دربت فقهاء ومتكلمين
ومفسرين ومحدثين يشار اليهم بالبنان . وكان علماء الحنابلة
يولون الخطب في المساجد والمدارس والزوايا عناية كبيرة ،
وكان ابن تيمية ينمو مع هذه الامور كلها كأنه جزء منها .
ولما كان في الثانية والعشرين من عمره خلف اياه ، وكان قد
توفي في السنة السابقة ، في التدريس ، وكان هذا اعترافاً
بمقدرته . وذاعت شهرة دروسه لا بين السنة فحسب ، ولكن
بين الشيعة الذين حضروا دروسه .

وكان العصر الذي عاش فيه يسيطر عليه المذهب الاشعري
ومسحة من التصوف مع استعداد تام لقبول النظرة التقليدية في
الشؤون العامة . وكان ابن تيمية خصماً لهذه جميعها ، وقد اثار
عليها ، منذ اول الامر ، حرياً عواناً . وهذا هو الذي جعله
يعتبر « مصلحاً » .

وقد قام بدور فعال في حياة مدينته وجماعته . وقد اثارت
« قسوته » في مهاجمة خصومه كثيراً من ردود الفعل العنيفة .
فاتهمه هؤلاء بالعنساد وطلبوا ان تنزل به العقوبة . ومن
ثم فقد صرف الرجل سنوات من حياته في سجون القاهرة
ودمشق ، حتى ان السنوات الاخيرة من حياته قضاها في قلعة
دمشق وتوفي فيها .

لم يكن ابن تيمية عالماً يكتفي بالتعليم والتصنيف ، بل كان ايضاً ، مثل عدة كبير من الحنابلة عبر التاريخ ، متفاعلاً مع بيئته . فقد اخذ على عاتقه ان يتأكد من ان الناس ، كبيرهم قبل صغيرهم ، كانوا يحافظون على الآداب الاسلامية في تصرفهم . هذا كان من واجبات المحتسب ، لكن ابن تيمية كانت (بتوظيفه نفسه بنفسه) محتسباً فعالاً نشيطاً .

وخلف لنا ابن تيمية عدداً كبيراً جداً من المصنفات التي تعالج قضايا مختلفة . وليس من الممكن ان نتحدث عن كتبه جميعها في هذه العجالة ، لكننا نرى لزماً علينا ان نضع بين ايدي القارئ بضعة من آرائه ومواقفه الأكثر أهمية .

فقد بحث في رسالته الواسطية ، وفي غيرها ، العقيدة الاسلامية التي كان يرى انها تأذت من الاشعرية والتصوف والتقليد . فقد قبل بعض المسلمين القول بان الله ذو صفات جثمانية ، يأنين ذلك على تفاسير مجازية لبعض آيات جاءت في القرآن . وقد عاد ابن تيمية ، ودعا الناس الى ان يعودوا مثله ، الى القرآن الكريم والسنة النبوية لفهم العقيدة فهماً عميقاً دقيقاً صحيحاً اصيلاً ، تاركين غير ذلك من الوسائل والآراء التي تسربت الى الاسلام من الخارج كالتمثيل والتجسد والتشبيه . ولم يكن ليقبل بما جاء به المتصوفة من تطرف في الرأي اذ قالوا بالحلول والاتحاد . فمثل هذا القول كان ، في نظره ، شركاً لا يقبله

الاسلام ، ومن ثم كان هجومه العنيف على ابن عربي ، مع ان ابن تيمية لم يهاجم التصوف جملة . الا ان المتصوفة نعموا عليه موقفه منهم ورفعوا امره الى السلطان في القاهرة ، ونجحوا في ان يزج به في السجن .

وكان ابن تيمية حربياً على المقلدين . ذلك ان المؤلف في ذلك الوقت هو ان الفقهاء كانوا يتقيدون ، في بحشهم أمور الشريعة ، بما جاء به أئمة السنة الاربعة ، اي انهم لم يكونوا يبدون رأياً خاصاً قط . ذلك ان باب الاجتهاد كان قد اقفل قبل نحو خمسة قرون . ومع ان الحنابلة لم يقبلوا بهذا تماماً ، الا انهم راعوا هذا التقليد في بعض نواحيه . وكان ابن تيمية يرى ان الاجتهاد امر اساسي للجماعة الاسلامية واستمراره لازم . وقد اوضح موقفه هذا في عدد كبير من الفتاوى ، التي اظهر فيها اصالة في الرأي والاسلوب مقتصرأ في جدله على الاستشهاد بالقرآن والسنة ، والرجوع الى الاجماع على ما عرف في ايام الصحابة .

كان الفقهاء يعتمدون الاجماع والقياس والرأي احياناً في تفسيرهم للامور الشرعية . وقد تحدى ابن تيمية هذه كلها وقال بان اجماع العلماء يمكن اعادة النظر فيه ، ومن ثم فان آراء أئمة المذاهب السنية الاربعة يجب ان ينظر فيها من جديد متى سنحت فرصة لذلك ، على ان يعتمد على الكتاب والسنة .

ولم يكن ابن تيمية وحيداً في هذا الموقف ، بل ان ابن عبد

السلام وابن قيم الجوزية لم يريا قبول آراء الاثثة الاربعة قبولا مطلقاً . وقد حدد ابن عبد السلام موقفه اذ لم يسمح للجمهور بالاجتهاد ، بل قصره على اهل العلم . وكان ابن قيم الجوزية يقول بان الفقه يجب ان يكون عملية تامة متطورة كي تسترشد به الدولة للوصول الى الوسائل التي تعينها على القيام بمصلحة الامة .

. . .

وكان لابن تيمية مشاركة في عدد من القضايا مع غيره من علماء دمشق . ولعل عرضاً موجزاً لبعض هذه المشكلات التي بحثوها يوضح لنا مدى فعاليتهم ونشاطهم^١ .

تقديس الاراضي المقدسة (فلسطين) :

كان اهتمام الناس بالاراضي المقدسة من الموضوعات التي احتلت مكاناً مرموقاً في المناقشات الدينية في عصر المماليك . والكتب الثلاثة التالية التي وضعت في هذه الفترة تظهر مدى استئثار هذه القضية بتفكير العلماء ، وهي : « ترغيب اهل الاسلام بسكنى الشام » لعز الدين ابن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ، و « مشير الغرام في زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسي ، و « مشير الغرام في زيارة الخليل عام ، للتدمري الخليلي .

١ - راجع للماترجم كتاب Urban Life in Syria under the Mamluks. Beirut, American University of Beirut.

والفكرة التي يتناولها الكتاب الاول ، وهو مثل لكتب كثيرة في الموضوع ، هو ان الشام (اي ديار الشام) - ودمشق خاصة - بلد مقدس بالنسبة للمسلمين وذلك بسبب الاحاديث النبوية المتعددة المتعلقة بها . وقد دفن ععدد من الصحابة في سورية ، ومن ثم فان البلاد تشغل مكانة هامة في الاسلام ، واذن فانه يتعين على المسلمين الدفاع عنها . والمثير الاول يضع النبرة على القدس ، بينما يهتم الثاني بالخليل .

ويبدو ان تقديس الاراضي المقدسة كان قد اصبحت في القرن السابع (الثالث عشر) قوياً الى حد ان ابن تيمية وجد انه من المصلحة ان يفند مثل هذه الفكرة ، التي كان يعتبرها امراً فاضحاً . لذلك فانه صنف كتاباً سماه : « قاعدة في زيارة بيت المقدس » . وحججه وتقنيده تتلخص فيما يلي : (١) ان المسجد الاقصى يعتبر ثالث مسجد في الاسلام من حيث اهميته ، اما مسجد الخليل فلا يعتبر مساوياً له . (٢) والمسجد الاقصى هو مكان لعبادة الله ، مثل اي مسجد آخر ، لكن زيارته لا تغني المرء عن الحج الى مكة . (٣) ليس ثمة حرم مرتبط بأي من مسجدي القدس او الخليل ، مع ان لمسجد مكة حرماً خاصاً به . (٤) زيارة المسجد الاقصى امر عادي ويمكن ان تتم في اي وقت ، لكن لا يمكن قط اعتبارها حجاً . (٥) لا يمكن اعتبار زيارة لمسقلان وعكا وطرسوس زيارة دينية لان هذه الاماكن هدمت

مساجدها . وقد جرب ابن تيمية ، بالاضافة الى امور اخرى ،
ان يبين ان كثيراً من الاحاديث التي يقبلها الناس على انها
صحيحة ليست هي كذلك ، وانما هي من وضع القصاص .

علاقة الانسان بالله :

كانت علاقة الانسان بالله من المسائل التي كثر القول فيها في
ذلك العصر . وكان ثمة اتجاهان : الاول هو التفسير الصوفي ،
وهو الذي يجذب اليه العدد الكبير من الاتباع ، والذي لفت
نظر العلماء لما اخذ المتصوفة تنظيم انفسهم طرقاً . وكان الاتجاه
الآخر هو الاتجاه السني ، الذي كان يحتضنه الاشاعرة والمدارس
الحنبلية الحديثة العهد ، والتي كانت تتطور بسرعة بين القرن
السادس (الثاني عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر) .

كان التفسير الصوفي يقول بالحلول والاتحاد ، وهما فكرتان
نشأتا مع الوقت وتطورتا بتأثير عدد من المفكرين . وقد اضيف
اليهما ، في القرن السابع (الثالث عشر) ، وحدة الوجود . وقد
تشدد المتصوفة في اعتبار المعرفة طريقاً لادراك الله . وقد كان
الكثيرون منهم ، ان لم يكن كلهم ، مستعدين لقبول اساليب
غريبة للعبادة ، او التخلي عن بعض ما هو مفروض من العبادات :
فقبلت الطرق الصوفية الذكر والسماع طريقاً للمعرفة . وقد مر
بنا ان الصوفي الاول في هذه الفترة كان ابن عربي ، لذلك لما

أخذ ابن تيمية نفسه بمقارعة التصوف اتخذ ابن عربي هدفاً
لحملاته .

أما الاتجاه السني فقد حافظ على مستوى رفيع في الأخلاق
والتفكير ، ورفض قبول أي تجديد أو ترتيب قد ينتقص من
صفاء العقيدة الأولى . وقد كان علماء السنة ، سواء في تفنيدهم
للمصوفية أو في إعادة النظر في بعض الأمور المتعلقة بالإسلام ،
نشيطين جداً . ولعل ابن تيمية ، على ما ذكرنا ، كان أكبر
قادة الفكر السني (الحنبلي) في ذلك العصر .

كان ابن تيمية ومعاصره يرون أن الإسلام هو الدين الحق ،
ومن ثم فإنه كان يتعين على المسلم أن يؤمن بالله وبرسوله . والمسلم
يرجع إلى القرآن والسنة لتفهم العقيدة لأن جميع الأمور المتعلقة
بالإيمان والعمل موضحة فيها بما لا يترك زيادة لمستزيد . والإيمان
الذي يضمن للمسلم النجاة هو الاعتقاد بالله وحده وبرسوله .
وأصرار ابن تيمية على أن الإيمان وحدة لا تتجزأ أمر يلفت
النظر ، إذ أن هذه النظرة قبلت العبادة على ما جاءت عليه في
مصدري الإسلام الأساسيين فقط . يضاف إلى ذلك أن الإنسان
يجب أن يسلم أمره إلى الله ، وأن تسليمه يجب أن يكون تاماً ،
شأنه في ذلك شأن إيمانه .

كان الله يوحى إلى الإنسان بواسطة الرسل ، ومحمد هو خاتم

الرسول . واذن فعلى الانسان ، عندما يطلب العون من الله ، ان يسأل النبي شفاعته ، لكن ابن تيمية عارض التردد على المزارات وزيارة قبور الاولياء على اساس ان مثل هذه الاماكن واولئك الرجال لهم قوى خارقة ، او انهم يمنحون بركات خاصة او انهم يستطيعون ان يتوسطوا بين الانسان وخالقه ، وحمل على مثل هذه الزيارة حملات شعواء ، وبذل الكثير من الجهد ليظهر للناس ان الله لم يهب مثل هذه القبور مكانة متميزة او قوة خاصة .

الانسان والامة :

كانت الامة الاسلامية هي الامة في نظر ابن تيمية ، وكان التعاون بين افراد الامة هو اساس العمل المشترك ، فكان يترقب على المسلم ان يعين الآخرين على فعل الخير وتجنب الشر واحقاق الحق . وكان ابن تيمية يعتبر الامة شيئاً عضوياً وان لها اهدافاً وغايات معروفة . وغرض الامة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعنى هذا ان الامة كانت تحقق ارادة الله .

وكان على الامة ، رغبة منها في تحقيق غاياتها ، ان يكون لها تنظيم دولة هو الامامة التي يتوجب عليها ، وعلى ما فيها من موظفين وهيئات ، ان تدعى لمبادئ الاسلام . ويتربط عليها

ان يكون هدفها ايضاً الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويجب ان تكون دولة عادلة لان الله لن يوازن دولة ظالمة ، ولو ان هذه قد تكون دولة مكونة من مؤمنين . والدولة التي كان ابن تيمية يفكر فيها هي دولة دينية ، لكنه كان يريد ما يرى هنري لاوست ، دولة واجبها ان تتعاون مع الامة وتخدمها ، لا ان تكتفي بان تقبل خضوعها فحسب . على ان الخضوع كان لازماً لتحقيق الهدف الذي وجدت الامة من اجله . وعلى الدولة واجب ادبي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للامة ، اذ يتوجب عليها ان تحق الحق ، وتشر الامن وتؤكد من ان الناس قاموا بفروضهم الدينية . وعليها ، بالاعتماد على المحتسب ، ان تستوثق من صحة المعاملات وان تحمي الناس من الغش والتدليس .

اما من الناحية الاقتصادية فقد كان على الدولة ان تحمي الامة ضد الاحتكارات وتدليس التجار . ومراقبة الاسعار كانت جائزة عندما يكون المقصود منها مساعدة الناس في الحصول على حقهم - في ايام القحط والعوز . وقد قبل ابن تيمية ان تتدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية للمجتمع لضمان حاجاته فقط . واذن فقد كان جائزاً ان يكلف البعض القيام باعمال تجارية او زراعية او في حالة الحرب على ان يكون ذلك لقاء تعويض ، وعلى ان لا يتأذى احد بسببها .

ولم يكن ابن تيمية يحيد الاقتصاد الفردي ، لان الفرد لم

يكن السيد المطلق لتصرفه وافعاله : بل ان قيامه بعمل ما كان خاضعاً لتعاليم الاسلام . وكان على الدولة ان تتأكد من ان هذه القوانين تراعى في الاعمال .

الجهاد :

قامت امبراطورية المماليك والصليبيون لا يزالون يحتلون بعض اجزاء المنطقة ، وكان لا بد من شن الغارات ضدهم الى ان يخرجوا . على ان خطر هجوم اوروبي مجدد كان قائماً في اذهان الناس ، والواقع انه كان ثمة اكثر من محاولة واحدة نذكر منها على سبيل المثال الحملتين الفاشلتين على الاسكندرية وفيكوبوليس . وكانت بعض عناصر السكان قتهم بمساعدة الاوروبيين . وكانت الدولة تعتبر هؤلاء خونة ، ويجب ان يطالهم العقاب اما افراداً او جماعات . وقد هاجم المغول سورية وجوارها مرات عدة ، وكان القتال يتراوح بين النصر والخذلان بدرجات مختلفة . وقد وجد هناك من يعطف على المغول من ابناء البلاد . فهل يعتبر هؤلاء خونة ايضاً ؟ وعلى اي اساس ؟

كانت هذه القضايا المتعلقة بحروب تلك الفترة موضع بحث ونقاش . كان الاوروبيون مسيحيين ولذلك لم تكن الدولة حرة

في تسيير حملات ضدهم ، بل كان في واقع الامر يتوجب عليها ان تقوم بالجهاد ضدهم على يد السلطان . لكن المغول كانوا قد اسلموا . فهل كان القتال ضدهم عملاً مشروعاً ؟ لقد رأينا ان ابن تيمية قاد الحملة ضدهم بنفسه ، ولو لم يكن الرجل مقتنعاً بصواب رأيه لما قام بهذا العمل . وقد كان رأيه في الموضوع واضحاً كل الوضوح . كان المغول مسلمين ، ولكن تصرفهم الوحشي مع المسلمين في مدن العراق وشمال سورية وقراها وضعهم في مصاف المجرمين العاديين : ومن ثم فقد حق عليهم القتال . وكان اكثر من نصرهم من الشيعة ، ولم يكن ابن تيمية معجباً بهم . ولذلك فقد رافق حملة ارسلت للهجوم على معانهم في جبال سورية ولبنان .

. . .

لقد ترك علماء عصر الماليك اثرأ لا في معاصريهم فحسب بل تعداهم الى الاجيال التي تلت . وفي هذا المجال يبدو اسم ابن تيمية في طليعة المصلحين في ذلك العصر ، وذلك بسبب نشاطه ودقة تفكيره وصفاء أسلوبه (بالنسبة الى الفقهاء وأهل الشرع) وصراحته . وقد كان اتباع ابن تيمية كثيرين ، ومن ابرزهم ابن قيم الجوزية (توفي سنة ٧٥١/١٣٥٠) . ومن تأثر بأراء ابن تيمية من غير الحنابلة نذكر الذهبي وابن كثير وابن حجر ،

وهم ثلاثة من كبار المؤرخين العلماء . وقد كان تأثير ابن تيمية في مصر كبيراً حتى في حياته .

ومن الجدير بالذكر انه لما سمع بعض علماء بغداد ، العاصمة التي دمرها هولاكو قبل ذلك بسبعين سنة ، بان ابن تيمية معرض للسجن في قلعة دمشق كتبوا الى السلطان الناصر يرجونه في قضية شيخ الاسلام . وقد جاء في رسالتهم انه لما بلغ المشاركة واهل الولايات العراقية الشرقية بان شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن تيمية مسجون ، حز ذلك في نفوسهم . ولما ادرك علماء تلك النواحي مدى المأساة كتبوا الى السلطان مؤيدين الشيخ في فتاواه ، مشيدين بعلمه وفضله ، مدافعين عن دينه وحرصه على نصح الامراء المسلمين بما يتوجب عليهم نحو الاسلام .

ولما فتح العثمانيون سورية ، ضعف شأن الحنابلة ومدارسهم ، لان الاثراك كانوا حنفيين . وقد ظل ابن تيمية مدة طويلة منسياً في بلده . ولعل المتصوفة ، الذين مال العثمانيون اليهم (فقد بنى سليم ، فاتح سورية ، زاوية حصول ضريح ابن عربي في دمشق) اسهموا في ذلك . الا ان بلاداً اخرى اخذت نفسها بالتعرف الى ابن تيمية ودرس آرائه واقتباعه . ففي واسط القرن الثامن عشر قام محمد بن عبد الوهاب بدعوته في نجد ، وكانت اصلاً تسير على خطوات ابن تيمية . وبعد ذلك بقرن تقريباً قام السيد محمد بن علي السنوسي بحركته الإصلاحية في

ليبيا - وأثر تعاليم ابن تيمية واضح في الدعوة السنوسية . وفي مطلع القرن الحالي أعلن السيد رشيد رضا صاحب المنار ، واحد كبار السلفيين ، أنه من أتباع ابن تيمية .

واذن فقد وضع ابن تيمية الاطار الاول للإصلاح الاسلامي والاحياء الديني ، الامر الذي قبله دعاة الإصلاح وجماعة الاحياء منذ ذلك اليوم .

المصادر

— ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ،
باريس ، المطبعة الاهلية ، ١٨٧٤ - ١٨٧٩ (٤ اجزاء)

— ابن تغري بردي ، يوسف
النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ،
القاهرة ، ١٩٦٣ (١٢ جزءاً)

— ابن تيمية ، تقي الدين
بغية المرقد ،
القاهرة ، ١٣٢٣ هـ

— ابن تيمية ، تقي الدين
الحسبة في الاسلام ، (ضمن مجموعة الرسائل الكبرى)
القاهرة ، ١٣٢٣ هـ

— ابن تيمية ، تقي الدين

رسائل ومسائل

القاهرة ، ١٣٤٦ هـ

— ابن تيمية ، تقي الدين

فتاوى

القاهرة ، ١٣٢٥ - ١٣٢٩ هـ (٥ اجزاء)

— ابن تيمية ، تقي الدين

كتاب السياسة الشرعية

القاهرة ، ١٣١٦ هـ

— ابن تيمية ، تقي الدين

مجموعة الرسائل الكبرى

القاهرة ، ١٣٢٣ هـ

— ابن جبير

رحلة ابن جبير (حسين)

بيروت ، صادر ، ١٩٦١

— ابن طولون ، محمد بن علي

تاريخ الصالحية

دمشق ، ١٩٤٩ (جزءان)

— ابن عربي ، محيي الدين
ترجمان الاشواق

بيروت ، صادر ، ١٩٦٣

— ابن عساكر ، علي بن الحسن
تاريخ مدينة دمشق
دمشق ، ١٩٤٥

— ابن الفرات ، محمد
تاريخ ابن الفرات
بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٨ ج ٨ و ٩

— ابن فضل الله العمري
مسالك الايصار في ممالك الامصار
القاهرة ، ١٩٢٣ ج ١

— ابن قدامة ، موفق الدين
المغني
القاهرة ، ١٣٤٦ - ١٣٤٨ هـ (١٢ جزءاً)

— ابن كثير ، اسماعيل بن عمر
البداية والنهاية
القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ج ١٤

— ابو شامة ، عبد الرحمن
تراجم رجال القرنين السادس والسابع (فيل كتاب الروضتين)
القاهرة ، ١٩٤٧

— ابو الفدا ، اسماعيل بن علي
تقويم البلدان ، (تحقيق رينو دي سلان)
باريس ، ١٨٤٠

— ابو الفدا ، اسماعيل بن علي
المختصر في اخبار البشر
استانبول ، ١٢٦٨ هـ

— البدرى ، عبد الله
نزهة الاعلام في محاسن الشام
القاهرة ، ١٣٤١ هـ

— زامرسن ، ك. ف. (محقق)
تاريخ سلاطين المماليك
ليدن ، ١٩١٩

— الشيزري ، عبد الرحمن
نهاية الرتبة في طلب الحسبة
القاهرة ، ١٩٤٦

— الظاهر ، خليل
زبدة كشف الممالك ، (تحقيق رافيسو)
باريس ، ١٨٩١

— القلقشندي ، شهاب الدين
صبح الاعشى
القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٤ ج ١٤

Affi, A. E., « The Mystical Philosophy of Muhyid Din Ibn ul 'Arabi », Cambridge, 1939.

Arberry, Arthur J., « Sufism », London, 1950.

Benjamin of Tudela, « The Travels of Rabbi Benjamin, In Early Travels in Palestine », (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Brocquiere, Bertrandon de la, « The Travels of Bertrandon de la Brocquiere », (ed. by Th. Wright), London, 1848.

Ecochard, M. and Claude Le Coeur, « Les Baines des Damas », Beirut, 1940.

Frescabaldi, Leonardo and others, « Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in A. D. 1384 », Jerusalem, 1948.

Gaudfroy-Demombyne, M., « La Syrie a l'epoque de Mamlouks d'apres les Auteurs Arabes », Paris, 1923.

Gibb, Sir Hamilton, « Arabic Literature », Oxford, 1963 (2nd ed.).

- Laoust, Henri, « Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques de Taki-Din Ahmad B. Taymiyya », Cairo, 1939.
- Niccolo of Poggobonsi, « A Voyage Beyond the Seas », Jerusalem, 1945.
- Sauvaget, Jean, « Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas », « Revue Etudes Islamiques », 1934.
- Smith, Margaret, « Readings from the Mystics of Islam », London, 1950.
- Terresse, Rene, « L'Irrigation dans la Ghouta de Damas », « Revue Etudes Islamiques », 1929.
- Ziadeh, Nicola A., « Urban Life in Syria under the Early Mamluks », Beirut, 1959.

فهرست

۱

۱۳	الآراميون
۷۶	أبانا (نهر)
۱۲۱	الانابكية (المدرسة)
۱۳۱	الأتراك
۲۰۴	ابن الاثير
۵۹	الاحمر (الجبل)
۲۰۰ ، ۳۵	ارجواش
۹۴ ، ۵۸	ارمينية
۲۱۸	الاسكندرية
۱۷۲ ، ۱۶۳	الاسماعيلية
۱۷۶	الاشعرية
۱۳۱	الاكراد

٨٥	الامويون
٢٣ ، ٧١ - ٩٠ ، ٩٤ ، ١٣١ ،	الايوبي ، صلاح الدين
١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٨	
١٥ ، ٢٥ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٩ ،	الايوبيون
١٢٠ ، ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ،	
١٨٩	

ب

٨١ ، ١٢٢	باب البريد
١٣١	باب توما
٧٥	باب الجابية
٨١	باب جيرون
١٥٧	باب الشامية
٧٥ ، ١٣٢	باب شرقي
٣٥ ، ٦٧	باب الفرج
١٦٠	بدر الدين
٩٨	البدري
٦٢	برسباي (سلطنة)

١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٣٦ ،	ابن بطوطة
١٤١	
١٢ ، ٢٥ ، ١٢٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،	بغداد
١٩١ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٠	
١٣٤	البنادقة في دمشق
٩٦ ، ١٠٤	البوغيبونصي ، نيكولو
(انظر : الظاهر بيبرس)	بيبرس
١٣٤	بيروت
١٢٣ ، ١٢٤	بجارتان القيصري
٦٩ ، ١١٨	بين النهرين

ت

(انظر : المغول)	التتار
١٥٧	تحت الساعات
١٢	تدمر
٤٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢	ابن تغري بردي
٢٠٢	ابن التقي
١٤٥	تنكز
٤٤ - ٥٧ ، ١٢٣	تيمورلنك

ابن قتيبة
٢٩ - ٣١ ، ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٠٨
٢٢١ -

٢٠٣
قيمية (امرة)

ث

٨٩
ثورا (تهر)

ج

الجامع الاموي الكبير
١٤ ، ٧٦ - ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
١٤٣ ، ١٦٢

١١٨
الجبهة

ابن جبير
٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ - ٩٠ ، ١٠٠ ،
١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٦

٢٠١
الجزيرة

١٣٤
الجنويون في دمشق

٦٣
جنين

٢٠٠
ابن الجوزي ، سبط

٢١٢ ، ٢١٩
الجوزية ، ابن قيم

٢٣٤

الجوانية (المدرسة) ١٢٠

الجيلاني ، عبد القادر ١٧٧

ح

الحجاز ١٢

ابن حجر ٢١٩

الحديث ١٠٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٢

حران ٢٠٨ ، ٢٠٢

الحرم ٢١٣

حطّين (معركة) ٢٣ ، ١٧٥

حلب ١٢ ، ٦٢ ، ١١٩ ، ١٥٦ ، ١٧٥

الحلي ، ابراهيم ٥٩

حص ٤٠

ابن حنبل ، احمد ١١٧

الحنبلي (المذهب) ١١٧ ، ١٢١ ، ١١٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩

٢١٠ - ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٩

الحنفي (المذهب) ١١٩

خ

الخزاة	١٥٧
خشقدم	٥٩
الخضر	٨٨
ابن خلدون	١٨٤ ، ٢٠٤
الخليل (مدينة)	٢١٣
خليل ، الملك الاشرف	٢٦ ، ٩٥

د

دار البطيخ والفاكهة	١٥٩
دار العدل	٩٩
ابن داود	١٢٨
الدخوار ، ابن علي	١٢٥
درعا	١٢
دمشق :	
الاديرة فيها	١٣٤ - ١٣٦

اساطيرها	۱۵ ، ۱۳۳ - ۱۳۴
اسواقها	۱۰۵ - ۱۱۱ ، ۱۵۹ ، ۱۶۷ - ۱۷۲
ثروتها و مداخليلها	۱۴۵ - ۱۴۹
حکومتها	۶۳ - ۶۵ ، ۱۵۳ - ۱۶۰
حياتها الفكرية	۱۷۵ - ۱۹۹
دفاعها	۶۶ - ۶۷
سكانها	۱۳۱ - ۱۳۷
سيوفها	۱۱۰ - ۱۱۱
شعائرها	۱۴۳ - ۱۴۵
قلعتها	۹۳ - ۹۹
مدارسها	۶۹ ، ۸۳ - ۸۴
مستشفياتها	۸۴ ، ۱۲۲ - ۱۲۵
نقدها	۱۶۸
وصفها	۷۳ - ۹۰
دو لا بروكيبه ، برتراندون ۹۷ ، ۱۰۰ ، ۱۰۴ ، ۱۰۹ - ۱۱۱ ،	
	۱۳۵
دي فارتما ، لودفيكو	۹۷ ، ۹۸ ، ۱۰۴

ذ

الذهبي ٢٠٢ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ٢١٩

ر

الربوة ١٨ ، ٧٣ ، ١١٥ ، ١١٦

رضا ، رشيد ٢٢١

الرملة ٦٣

الروم (انظر : النصارى)

الرومي ، جلال الدين ١٧٧

الريحانية (المدرسة) ١٢٠

ز

ابن الزكي (قاضي القضاة) ١٩١

زنكي ، آل ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٣١

١٧٥ ، ١٨٤

س

١٨٩	ابن الساعاتي
٢٠٢	السبكي
١٢٠ ، ٦٩	السلاجقة
٦١ ، ٥٨	سليم الاول
١٦٦ ، ١٣٢	السمره
٤٤	سمرقند
٩٥	سنجر
٦٨ ، ٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ - ٢١٥	السنة
٢٢٠	السنوسي ، محمد بن علي
١٨٨ ، ١٧٧	السهورودي (المقتول)
١٧٧	السهورودية (الطريقة)
١٠٤	سوخم ، فون
٥١	سودون
٦٧ - ٦٨	سور المدينة
٢٣٩	

سوق الخيل ١٥٩

سوق الرقيق ١٥٩

سوق ساروجا ١٥٧

سوق الكبير ٧٥

سيف الدين ١٢٣

السيوفي (بنو) ٦٦

سيولي ، سيمون ١٠٤

ش

الشاذلي ١٧٧

الشاذلية (الطريقة) ١٧٧

الشارع المستقيم ١٣١

الشافعي (المذهب) ١١٩ ، ١٥٥ ، ١٧٦

الشام ٦٢

ابو شامة ١٧٥ ، ١٨٨

الشريعة ٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٧٠

شقحب (معركة) ٢٠١

١٧٧	شمال افريقية
٢٠٠	الشهرزوري
٢٢٠	شيخ الاسلام
٢٠٩ ، ١٧٢ ، ١٦٣ ، ٦٩ ، ٥٨	الشيعة

ص

١٢١	الصاحبة (مدرسة)
٢٠٨ — ٢٠٧	الصالحى ، ابن طولون
١٢٢ ، ١١٧ ، ١١٥ ، ٣٠	الصالحية
١٥٨ ، ٦٢	صفد
(انظر : الايوبي ، صلاح الدين)	صلاح الدين الايوبي
٨٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٣ ، ١٧٦ ،	الصوفية
١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،	
٢٢٠ ، ٢١٤ ، ٢١١	
١٣	صيدا

ض

١٢١	الضياثية (المدرسة)
٢٤١	١٦

ط

طرسوس	٢١٣
الططيلي ، بنيامين	١٣٢ ، ٧٥
طومان باي	٥٨

ظ

الظاهر بيبرس	٢٥ ، ٢٦ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٥٥
	١٧٦ ، ٢٠٠
الظاهرية (المدرسة)	٩٤

ع

العادية (محكمة)	١٥٧
العباسيون	٢٥ ، ١٨٤
ابن عبد السلام ، عز الدين	٢٠٠ ، ٢١٢
ابن عبد الهادي	١٢١
ابن عبد الوهاب ، محمد	٢٢٠
العثمانيون	٢٤ ، ٢٢٠

١٢	المراق
١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ - ١٩٩ ، ٢١١	ابن عربي
٢١٤	
٢١٣	عسقلان
١٥٧ - ١٥٨ ، ٢١٣	عكا
١١٧	ابن عمر (مدرسة)
٢٤ ، ٢٠٦ - ٢٠٧	العمرى ، ابن فضل الله
١٢١	العمرية (المدرسة)
١٨٩	ابن عنين
٢٦	عين جالوت (معركة)

غ

١٧٨ - ١٨٣	الغزالي
٩٦ ، ١٠٤	غوثشي ، جورجيو
٥٨ ، ٦١	الغوري (السلطان)
١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ٧٤ ، ١١٨ ، ٢٠٠	الغوطة

ف

١٨٤	ابن الفارض
٢٤٣	

٢٠٤	ابن الفرات
٢٤	فردريك الثاني
١٠٩ ، ١٠٤	فرسكو بالدي ، ليوناردو
٧٦	فرقر (نهر)
١٣٤	القرنسيون في دمشق
١٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥	فلسطين

ق

١٢٨ ، ١٢٧	القادرية (الطريقة)
٢٦ — ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ١٤٥ ،	قازان
١٥٨ ، ٢٠٠	
١٨ ، ٨٧ ، ١١٥ ، ١١٦	قاسيون (جبل)
٥٩ ، ١١٩ ، ١٥٥ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ،	القاهرة
٢٠٩	
٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤	قبيجق
١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ٢٠٢	ابن قدامة ، ابو عمر
٢٠٣	قدامة (بنو)
٢٤٤	

٢١٣ ، ١١٧ ، ٦٢	القدس
١٩	القدم الشريف
١٨ ، ٨٢ ، ١٠٠ ، ١١٧ ، ١٣٥ ،	القرآن الكريم
١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٧٨	
١٤	قصر معاوية (الاخضر)
١٣٤	القطاونيون في دمشق
١١٨	قطية
١٤٩	القلقشندي
١٢٨	القلندرية (الطريقة)
ك	
١٣٤	الكالابريون في دمشق
٢٤	الكامل
٢٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٩	ابن كثير
٦٢	الكرك
٢٠١	كسروان
٢٤٥	

الكسوة ٤٢

الكمال ١٤٥

كنيسة مريم ١٣٢

ل

لبنان ١٧٥ ، ٥٨ ، ٢٤

ليلة النصف من شعبان ١٢٠

م

ابن مالك، ابو الربيع سليمان

ابن ابراهيم ١٣٨

المالكية ١١٩ ، ٨٣

المحدث ٢٠٢

محمد (رسول الله) ٢١٥ ، ١٩

مرج دابق ٦١

مرسية ١٩٠

المزة ١٤٤ ، ١١٥ ، ٩٠ ، ٣٠

٢٤٦

١١٧	مسجد ابي صالح
٢١٣	المسجد الاقصى
١٥٦	المصري ، الجمال
١٤٥	المظفر
٨٧	مفارة الجوع
٨٧	مفارة الدم
١٣٩	المغرب
٢٥ — ٥٨ ، ٩٤ ، ١٨٤ ،	المقول
٢٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ — ٢١٩	
٢١٢	المقدس ، شهاب الدين
٢٠٥	مكة
٢٠٠	الملك المعظم
١٦٤	الملكيون
١١٧	ابن منجا
٥٨	الموارنة
٢٠٥ ، ٢٣	الموصل
٢٠٥	الموفق
٢٤٧	

المولوية (الطريقة)	١٧٧
ميا فارقين	١٨٩
الميدان الاخضر	٩٩
ميدان الحصى	٩٩
ميدان تحت القلعة	١٤٤ ، ٨٦ ، ٦٩
ميدان الخيل	١٤٤

ن

قابلس	٢٠٢ ، ١٦٦ ، ٦٣
الناصر قلاون	٢٦
الناصر محمد	٢٢٠ ، ٢٦
ابن خبابة	١٨٩
النيلك	٢٠١
النبوية (الطريقة)	١٢٨
النصارى	١٣١ - ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٦٤ -
	١٧٧ ، ١٦٧

١٧٦	النصيرية
١٨٧ ، ١٧٥ ، ١٢٧ ، ٨٤	نور الدين
١٢٥ ، ١٢٢	التوري
٢٠٢	النوري
١٢٢ ، ١١٥ ، ٩٠ ، ١٩	التيرب
٢١٨	نيكوبوليس

هـ

١٧٧	الهنود
٢٢٠	هولاكو

و

١١٨ ، ٦٩	وادي البنفسج
٢٨	وادي الحزن دار
١٢٨	الوفائية (الطريقة)

ي

١٨٩	ياقوت
٢٤٩	

١٦٠	البرودي
١٦٤	اليعاقبة
١١٨ ، ٦٩	اليلكي
١٨٩	اليمن
١٦٧ — ١٦٦ ، ١٣٥ ، ١٣٢ ، ١٤	اليهود
١٧٧	اليونان
٢٠٠	اليوناني

فهرست المحتويات

٧	المساهمون في هذا الكتاب
٩	تمهيد
١١	مقدمة
٢١	١ - الممالك
٧١	٢ - دمشق صلاح الدين وابن جبير
٩١	٣ - الرحالة الاوروبيون في دمشق
١١٣	٤ - دمشق وضواحيها
١٢٩	٥ - السكان ومشكلاتهم
١٥١	٦ - ادارة المدينة
١٧٣	٧ - الحياة الفكرية
٢٢٣	المصادر
٢٣١	فهرست

ف. پ. (۱۶۲)

۱۹۶۶

هَذَا الْكِتَابُ

تعتبر دمشق من أقدم مدن العالم . ولقد كانت منذ أيام الآراميين في الألف الثالث قبل الميلاد ، ملتقى الطرق التجارية في منطقة الشرق الأوسط ، كما كانت مطمح انظار الفاتحين من آشوريين وكلدانيين وفرس وإغريق ورومان وبيزنطيين .

وعرفت دمشق ، قبل الفتح العربي وبعده ، فترات تألفت فيها عظمتها . وإحدى هذه الفترات اللامعة تلك التي عرفت تحت الحكم المملوكي . والكتاب يروي قصة هذه المدينة العظيمة في تلك الفترة : في حياة أهلها اليومية ، وتجارتهسا ، وصناعاتها ، ومحاكمها ، وحكومتها ، ومدارسها ، ومذاهبها الدينية والفلسفية ، وعلاجها ، وأسواقها ، وكنائسها ، ومساجدها .

كتاب جدير بالقراءة

مكتبة لبنان

To: www.al-mostafa.com